

الْقَلْبُ

عناصر الموضوع

٤٠٢	مفهوم القلب
٤٠٣	القلب في الاستعمال القرآني
٤٠٤	الألفاظ ذات الصلة
٤٠٦	أنواع القلوب في القرآن الكريم
٤٤٥	سنة الله في أصحاب القلوب

مفهوم القلب

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «القاف واللام والباء أصلان صحيحان: أحدهما: يدل على خالص شيء وشريفه، والآخر على رد شيء من جهة إلى جهة، فالأول القلب: قلب الإنسان وغيره، سمي بهذا؛ لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كل شيء وأشرفه قلبه»^(١).
ومنه: قلب النخلة وقلبها: لبها وشحمتها، وأجود خوصها وأشدّه بياضاً، ويقولون: هو عربي قلب، أي: محض خالص، ويقولون: القلب: تحويل الشيء عن وجهه، وقلب الأمور: بحثها ونظر في عواقبها، وتقلب في الأمور وفي البلاد: تصرف فيها كيف شاء، ورجل قلب يتقلب كيف شاء وتقلب ظهرًا لبطن وجنبًا لجنب: إذا تحول، والقلب: مضغّة من الفؤاد معلقة بالنياط، والجمع أقلب وأقلب وقلوب^(٢).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «القلب: لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، ويسمى الحكيم: النفس الناطقة، والروح باطنه، والنفس الحيوانية مركبة، وهي المدرك، والعالم من الإنسان، والمخاطب، والمطالب، والمعائب»^(٣).
وقيل: هو محل النفس والعقل والعلم والفهم والعزم. وسمي قلباً لتقلبه في الأشياء بالخواطر والعزوم والاعتقادات والإرادات^(٤)، وقيل معناه: الروح. ولم يرتض الراغب هذا التعريف فقال: فأما العقل فلا يصح عليه ذلك^(٥).
فالقلب في المعنى الاصطلاحي يمكن أن يحمل على أصليه الصحيحين في اللغة.

(١) مقاييس اللغة ١٧/٥.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣٧١٣/٥.

(٣) التعريفات ص ١٧٨.

(٤) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي: ص ٤٨٢.

(٥) المفردات: ص ٦٨٢.

القلب في الاستعمال القرآني

ورد (القلب) في القرآن الكريم (١٣٢) مرة^(١).
والصيغة التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	١٩	﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]
المثنى	١	﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]
الجمع	١١٢	﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١]

وجاء القلب في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه^(٢):

الأول: العقل: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]. يعني: عقل.

الثاني: الرأي: ومنه قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]. يعني: أراؤهم شتى.

الثالث: القلب بعينه الذي في الصدر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. يعني: القلب الذي هو محل النفس.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٥٤٩ - ٥٥١.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٤٨٣، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العقل:

العقل لغةً:

هذه المادة تدل على حبة في الشيء، ومنه العقل: وهو الحابس عن ذميمة القول والفعل، وهو نقيض الجهل، يقال: عقل يعقل عقلاً، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعل، وجمعه عقول. ورجل عاقلٌ وقوم عقلاء وعاقلون ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم وافر العقل^(١).

العقل اصطلاحاً:

قال الراغب: «العقل: يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيدة الإنسان بتلك القوة عقلٌ»^(٢).

وقيل: العقل آلة التمييز. وعرفه الجزائري: قوة باطنية يميز بها المرء بين النافع والضار، والصالح والفساد^(٣).

الصلة بين العقل والقلب:

ذهب الشافعي وأكثر المتكلمين إلى أن محل العقل هو القلب، وهو مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها^(٤).

٢ الفؤاد:

الفؤاد لغةً:

التفؤد: التوقد. والفؤاد: القلب لتفؤده وتوقده، وهو مذكّر لا يأتي مؤنثاً^(٥).

الفؤاد اصطلاحاً:

قال الراغب: «الفؤاد كالقلب لكن يقال له: فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد، أي: التوقد»^(٦).

الصلة بين الفؤاد والقلب:

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥٦/٤.

(٢) المفردات ص ٥٧٧.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٥٠/١.

(٤) انظر: الكليات، أبو البقاء الكفوي ص ٦١٩.

(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣٢٨/٣.

(٦) المفردات ص ٦٤٦.

قيل: الفؤاد هو باطن القلب، وقيل: هو غشاء القلب، والقلب حبه وسويداؤه، كما أن الفؤاد الرقيق تسرع إمالته، والقلب الغليظ القاسي لا ينفع لشيء^(١).
فالأفئدة توصف بالركة، والقلوب باللين؛ لأن الفؤاد غشاء القلب إذا رق نفذ القول فيه وخلص إلى ما وراءه^(٢).

٣ الصدور:

الصدور لغة:

جمع (صدر) وصدر كل شيء: أوله، وصدر السهم: ما جاز من وسطه إلى مستدقه، وسمي بذلك؛ لأنه المتقدم إذا رمي. والصدر: الطائفة من الشيء، والصدرة من الإنسان: ما أشرف من أعلى صدره^(٣).

الصدور اصطلاحًا:

قال المناوي: «الصدر: مسكن القلب، يشبه رئيس القوم، والعالى المجلس؛ لشرف منزلته على غيره من الناس»^(٤).

الصلة بين الصدور والقلب:

يتبين أن القلب جزء من أجزاء الصدر وأعضائه.

(١) انظر: الكليات، أبو البقاء الكفوي ص ٦٩٦.

(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٣٣.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٧٠٩/٢.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢١٣.

أنواع القلوب في القرآن الكريم

أولاً: القلب السليم.

ويتصف هذا القلب السليم بعدة صفات، منها:

١. الاطمئنان .

وردت آيات متعددة تحمل وصف الاطمئنان لقلوب المؤمنين، من هذه الآيات قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومعني الآية الكريمة: اذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم حين طلب إبراهيم عليه السلام من ربه كيفية البعث، حيث سأل مع إيمانه الجازم بالقدره الربانية ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان؛ ولهذا خاطبه ربه سبحانه بقوله: ﴿أُولَمْ تُؤْمِنُ﴾ أي: أولم تصدق بقدرتي على الإحياء، قال: بلى آمنت ولكن سألتك لأزداد يقينا على يقيني، وعلمنا لا مجال فيه لتشكيك، وليسكن قلبي بالمعاني المضمومة إلى الاستدلال برؤية ذلك فكان ما كان من أمر الله عز وجل له.

والطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج^(١).

يقول القرطبي - رحمه الله تعالى - الطمأنينة: اعتدال وسكون. فطمأنينة الأعضاء معروفة، وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد.

فاليقين في شأن خليل الرحمن موجود كائن، ولكنه صلى الله عليه وسلم يريد سكون قلبه بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان بأن الله قادر على ذلك، إذن فالقلب المطمئن هو الذي امتلأ سكوتاً وهيبة من عظمة الله عز وجل، قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]^(٢)

فبمعرفة الله والإكثار من عبادته يكتسب القلب سكونه، يقول الإمام الغزالي: «الطاعات تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً ونوراً وضياء حتى يتلأأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين، وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر»^(٣). واستشهد بالآية الكريمة السابقة [الرعد ٢٨].

من معاني طمأنينة القلب في القرآن

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٣٠٠.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢.

قال بعض السلف: دواء القلب في خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

انظر: القلوب، البيانوني ص ١٤١.

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٧.

الكريم:

١. يقين النفس.

قال تعالى: ﴿إِذْ نَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ١٢٤﴾ إِنَّ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلِتُحْمِلَكُمْ أَثْقَالُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١٢٦﴾ [آل

عمران: ١٢٤-١٢٦].

٢. الطمأنة والطمأنينة.

السكون وعدم الاضطراب، واستعيرت هنا ليقين النفس بحصول الأمر تشبيهاً للعلم الثابت بثبات النفس أي: عدم اضطرابها^(١).

٣. السكون مع اليقين بالنصر.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ١٠١﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا وَلِتُحْمِلَكُمْ أَثْقَالُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠٢﴾ [الأنفال: ٩-١٠].

قال الطبري: «لتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم، وتوقن بنصرة الله لكم»^(٢).

٤. عدم تغيير العقيدة.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ

بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

ومعنى ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾: لم تتغير عقيدته، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب^(٣).

٢. السكينة.

من صفات القلوب السليمة «السكينة» وقد وردت في القرآن في مواضع متعددة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٤٠٤﴾ [الفتح: ٤].

هذه الآية الكريمة تتحدث عن حدث له أهميته في حياة الإسلام والمسلمين، حيث معونة الله ونصرته لعباده الصادقين وقت الشدائد والمحن، وذلك أنه لما منع صلى الله عليه وسلم هو ومن معه من المسلمين من دخول مكة معتمرين كادت صفوف المسلمين تنفك، وتذهب ريحهم لعظم أمر احتباسهم من المشركين والحيولة دون دخول مكة. (فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! أليس قتلتنا في الجنة وقتلناهم في النار؟! قال: بلى، قال: فقيم نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧٨/٤.

(٢) جامع البيان، ٢٥٥/٩.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/٦٥٧.

يحكم الله بيتنا؟ فقال: يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً، فرجع منغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولن يضيعه الله أبداً فنزلت سورة الفتح^(١).

فأصل السكينة: الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، بل يوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات؛ ولهذا أخبر سبحانه بإنزالها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب نحو:

﴿يَوْمَ الْغَارِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعًا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّفَلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، ٢٦٤/٥.

﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾﴾ [٢٥] ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [٢٦].

[التوبة: ٢٥-٢٦].

﴿يَوْمَ الْفَتْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾﴾ [١٨].

[الفتح: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لُغْمَةً فَجَمَعَ إِلَهُهُمُ إِلَى اللَّهِ فَإِذْ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾﴾ [الفتح: ٢٦]. (٢).

أما السكون: فثبوت الشيء بعد تحرك. وقد فسر الضحاك السكينة: بالرحمة. وقيل السكينة: الوقار، وقيل: الملائكة، وهي بحسب ورودها تتنظم كل هذه المعاني. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٧.

الإيمان بربها، ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور، وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصر ويحذر.

عتاب فيه الود، وفيه الحضر، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله، والخشوع لذكره، وتلقي ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام، مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة، وبيان لما يغشى القلوب من الصدا حين يمتد بها الزمن بدون جلاء، وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله، وحين لا تخشع للحق ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج^(٢). و﴿يَأْنِ﴾ كيحن: آن يئين، كحان يحين لفظاً ومعنى^(٣).

﴿تَخْشَعَ﴾: أي: تلين، وتسكن، وتخضع تضرع وتذل، وتطمئن لذكر الله. والخشوع الخوف الدائم في القلب، ومصدر الخشوع هو القلب^(٤).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٤٨٩.

(٣) انظر: حاشية الشهاب ٩/٩٩.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/٦٤.

سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في البقرة ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَأَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٧﴾﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧-٢٤٨]^(١).

وقد فسرت بزوال الرعب وهذا لا يبعد عن الطمأنينة.

٣. الخشوع والإخبات.

من صفات القلب السليم «الخشوع» قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

الآية الكريمة «تحمل عتاباً مؤثراً من المولى الكريم الرحيم، واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله، فبعث فيها الرسول يدعوها إلى

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٦٤/١٦.

وموته، وما تقسو الحياة قسوتها على الناس إلا بهم، وما ترق رقتها إلا بالمؤمنين.

وجعل الخشوع للقلوب خاصة، إذ كان خشوع القلب غير خشوع الجسم، فهذا الأخير لا يكون خشوعاً، بل ذلاً، أو ضعة، أو رياء أو نفاقاً، أو ما كان.

أما خشوع القلب فلن يكون إلا خالصاً مخلصاً محصن الإرادة، واشترط القلب كأنه يقول: إنما القلب أساس المؤمن، وإن المؤمن ينبع من قلبه لا من غيره، متى كان هذا القلب خاشعاً لله وللحق، فإن لم يكن قلبه على تلك الحال، نبع منه الفاسق والظالم الطاغية وكل ذي شر.

ما أشبه القلب تتفرع منه معاني الخلق بالحبّة تنسرح منها الشجرة، فخذ نفسك من قلبك كما شئت، حلواً من حلول، ومراً من مر. وخشوع القلب لله وللحق معناه السمو فوق حب الذات، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة، وهذا يضع للمؤمن قاعدة الحياة الصحيحة، ويجعلها في قانونين لا قانون واحد.

ومتى خشع القلب لله وللحق، عظمت فيه الصغائر من قوة إحساسه بها، فيراها كبيرة وإن عمي الناس عنها، ويراهها بعيدة منه بمثل عين العقاب يكون في لوح الجو ولا يغيب عن عينه ما في الثرى. وقد تخشع القلوب لبعض الأهواء

في ظلال هذه الآية يقول أديب العربية مصطفى صادق الرافعي: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ هذه الكلمة حث وإطماع وجدال وحجة، وهي في الآية تصرح أن خشوع القلب الذي تلك صفته هو كمال للإيمان، وأن وقت هذا الخشوع هو كمال العمر، وكيف يعرف المؤمن أنه سيأتي له أن يعيش ساعة أو ما دونها؟!

إذن فالكلمة صارخة تقول: الآن الآن قبل ألا يكون آن، أي: البدار ما دمت في نفس من العمر فإن لحظة بعد «الآن» لا يضمناها الحي.

وإذا فني وقت الإنسان انتهى زمن عمله فبقى الأبد كله على ما هو، ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذي يدرك الحقيقة، وإن هو إلا اللحظة الراهنة من عمره التي هي «الآن» فانظر - ويحك - وقد جعل الأبد في يدك، انظر كيف تصنع به.

تلك هي حكمة اختيار اللفظة من معنى «الآن» دون غيره.

ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا كالنص على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبهم لذكر الله ولا للحق، فلا تقوم بهم الفضيلة، ولا تستقيم بهم الشريعة، وعالمهم وجاهلهم سواء، لا يخشعان إلا للمادة، وكأن إنسانهم إنسان ترابي، لا يزال يضطرب على مكر الليل والنهار بين طرفين من الحيوان عيشه

الرابع: الذل والتذلل؛ لقوله تعالى في سورة طه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] يقول: ذلت كقوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢].

مثلها في سورة القلم: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرْتُمْ﴾ [القلم: ٤٣].

ونحوه في سورة القمر: ﴿خُشَا أَبْصَرْتُمْ﴾ [القمر: ٧].
الإخبات:

ورد لفظ الإخبات في آيات ثلاث في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٥٢] لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [٥٣] وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٥٤] [الحج: ٥٢-٥٤].

يتحدث الحق جل وعلا عن حملة وحيه «الرسول» الذين يتمنون إيمان الناس بربهم وإسلامهم الوجه لله عز وجل، ويتحدث عن الشياطين وما جبلوا عليه من كراهية طريق

خشوعاً هو شر من الطغيان والقسوة فتقيد خشوع القلب «بذكر الله» هو في نفسه نفي لعبادة الهوى، وعبادة الذات الإنسانية في شهواتها، وما الشهوة عند المخلوق الضعيف إلا إله ساعتها^(١).

ومما يورث الخشوع: تقرب آفات النفس والعمل ومطالعة عيوب ونقائص النفس من العجب والكبر والرياء، وضعف الصدق وقلة اليقين^(٢).

الخشوع - بصفة عامة - في القرآن على أربعة أوجه:

الأول: التواضع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. يعني: المتواضعين.

الثاني: الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. يعني: خائفين.

الثالث: سكون الجوارح ورمي البصر إلى موضع السجود؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١] الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ [٢] [المؤمنون: ١-٢].

(١) انظر: وحي القلم ١/ ١٩٧، ١٩٦.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ١/ ٣١٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٤٢.

الله عز وجل ووقوفهم وقفة الأعداء في وجه المرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

جاءت هذه الآية تسليية للرسول صلى الله عليه وسلم تقول له: «لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين، ثم يبين المولى عز وجل سته أيضًا حيال مكر الشياطين، وأنه يطله ثم يثبت آياته الدالة على وحدانيته، ويجعل وساوس الشياطين فتنه للمنافقين وللكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله، وإن الكافرين نفي عداوة شديدة لله ولرسوله، وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق الحقيق بالإيمان فيؤمنوا به فتخبت له أي: «تخشع وتسكن قلوبهم» بخلاف من في قلبه مرض، وإن الله لمرشد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم. والإخبات: نزول الخبت وهو المكان المنخفض، وتفسيره بالإخلاص؛ لأنه لازم للتواضع والتذلل^(١).

وإخبات القلوب: يكون بالانقياد والخشية للقرآن على التخصيص، ولكل أوامر الله على التعميم^(٢)، قال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الزمر: ٣٤-٣٥].
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ
وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٤﴾

ولقد ورد عن السلف تفسيرات متعددة للمخبتين كلها ترجع إلى ما ذكرنا سابقًا وإن اختلفت العبارة.

قال سفيان: هم الراضون بقضاء الله، وقال الكلبي: المجتهدون في العبادة، وقال عمرو بن أوس: الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا^(٣).

هذا وقد وصف الله تعالى المخبتين بصفات ذكرها في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

والإخبات ورد في القرآن على وجهين:
الأول: الإخلاص ومنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣].

يعني: أخلصوا ومثلها في سورة الحج ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

يعني: المخلصين، والإخلاص محله القلب.

الثاني: الإخبات بمعنى القبول ومنه

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥٩/١٢.

(١) حاشية الشهاب ٥١٧/٦.

(٢) روح المعاني، الألويسي: ١٧/١٧.

المعاصي وقاية تحول بينه وبينها من قوة عزمه على تركها، وتوطين قلبه على ذلك؛ فلذلك قيل له: متق.

وتعريفها شرعاً: حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور وبترك بعض المباحات^(٣).

وقد ذكر أهل التفسير أن التقوى في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها: التوحيد، ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣].

وفي الحجرات: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ حَتَّىٰ اللَّهُ قُلُوبُهُم لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

والثاني: الإخلاص، ومنه قوله تعالى في الحج: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبَرَةً اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] أراد من إخلاص القلوب.

والثالث: العبادة، ومنه قوله تعالى في النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وفي المؤمنين: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

قوله تعالى في سورة الحج: ﴿فَتَخَيَّتَ لَهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

يعني فتقبل له صدورهم^(١).

٤. التقوى، الوجل، والإنابة، والخيرية، والطهر، والاهتداء. التقوى:

من صفات القلوب السليمة «التقوى» وهي كثر عزيز إن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف، وعلق نفيس، وخير كثير، ورزق كريم، وغنم جسيم وملك عظيم، فهي الخصلة التي تجمع خير الدنيا والآخرة، وعليها مدار القبول، وبها وصى سبحانه الأولين والآخرين فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣].

ومن هنا علمنا أنها الغاية التي لا متجاوز عنها؛ لجمعها محض النصيح والدلالة والإرشاد والتأديب والتعليم والتهديب^(٢).

والتقوى مشتقة من الوقاية وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وقاه وقياً ووقاية: صانه.

والتوقية: الصيانة والحفظ.

والمتمقي: هو من جعل بينه وبين

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٣٠.

(١) الوجوه والنظائر، الدامغاني ١/ ٣٢٦.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٦١.

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ ﴿٥٣﴾
[الحجر: ٥٢-٥٣].

وقد شبه الوجل في القلب باحترق السعفة، فعن شهر بن شوحب، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: الوجل في القلب كاحترق السعفة أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى. قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك^(٢).

وقال سفيان الثوري سمعت السدي يقول في الوجل -بالكسر-: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية. فيقال له: اتق الله فيجمل قلبه^(٣).

فالمؤمن الوجل هو المؤمن حقا كما قال عز من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٣٣﴾
[الزمر: ٢٣].

والوجل من الله ينقسم إلى قسمين:

❖ الخوف من عقابه سبحانه وهذا للعصاة.

❖ الخوف من عظمته وجلاله سبحانه وتعالى، وهذا لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين، سواء أكان ملكاً مقرباً

يقول الشيخ زاده: ﴿وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾
الوجل هو الخوف والفرع وهو ههنا متفرع على مجرد ذكر الله تعالى وملاحظة عظمته وجلاله، فإن هذا الخوف لا يزول عن قلب من ذكر الله تعالى عالماً بنعوت جلالة وصفاته كماله، سواء أكان ملكاً مقرباً أم نبياً مرسلأ أم مؤمناً تقياً، فإن كل واحد منهم عند ذكر الله تعالى يلاحظ عظمة الله تعالى واستغناؤه عن جميع ما سواه ويعلم احتياجه إليه في جميع مهماته، فلا جرم يهابه ويقشعر جلده، وتغلب عليه الدهشة بحيث يكاد يفنى وجوده^(١).

وقال تعالى في شأن المتواضعين لربهم المبشرين على لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [الحج: ٣٥].

وقال تعالى في شأن المشفقين من خشية الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

وقال تعالى في شأن ضيف إبراهيم عليه السلام حين دخلوا عليه فسلموا، فرد عليهم السلام، ثم قدم لهم الطعام فلم يأكلوا، قال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: فرعون. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ ﴿٥٢﴾

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٢/ ٢٩٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٣٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن، العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٧، الدر المنثور، السيوطي ٣/ ١٧٦.

أم نبياً مرسلًا.

وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه، والمحتاج إذا حضر الملك الغني يهابه ويخافه، وليست تلك الهيبة من العقاب بل مجرد علمه بكونه غنياً عنه، وكونه محتاجاً إليه يوجب تلك المهابة، وذلك الخوف^(١).

الخطوات الموصلة إلى الوجل:

في سورة «المؤمنون» يبين الحق تبارك وتعالى الخطوات الموصلة إلى الوجل، فيقول عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ^(٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يَقُولُونَ^(٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ^(٥٩) وَالَّذِينَ يَبُذُّونَ مَالَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ إِنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ^(٦٠) أُولَئِكَ يَرْجِعُونَ فِي الْغَيْبِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ^(٦١)﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

فالخطوة الأولى فهي: الإشفاق من جلال الله وعظمته والخوف من عذابه. وذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ومثله: ﴿وَيَدْعُوكَ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

أما الثانية فهي: التصديق بآيات الله القرآنية والكونية فكلها براهين على وجود الله عز وجل ينطق بذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يَقُولُونَ﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/١٢٢.

أما الثالثة فهي: عدم الإشراك بالله تعالى والمراد نفي الشرك بعامته ونفي الشرك الخفي بصفة خاصة، وذلك بالإخلاص في عبادة الله طلباً لرضوانه ينطق بذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ^(٦٢)﴾

أما الرابعة فهي: البذل والعطاء بسخاء، وذلك بإعطاء حق الله في الزكاة وغيرها بالتقرب بكل أنواع القربات مع الخوف أن لا يقبل الله منهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبُذُّونَ مَالَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ إِنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾

فالخوف يبعث على الاجتهاد لإزالة أسبابه مع الحذر من التقصير والإخلال، روى الترمذي أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَبُذُّونَ مَالَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال صلى الله عليه وسلم: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات)^(٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون، ٣٠٥/٥، رقم ٣٠٩٩.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٣٠٤/١، رقم ١٦٢.

ولا على طريقتهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٨٣: المائدة].

فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم، فمن كان مستتاً فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً، والجنون فنون^(٢).

مسألة يوههم ظاهرها الاختلاف والتناقض هي:

أنه جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] جاء في هذه الآية الوصف للمؤمنين بالاطمئنان وهو السكون والراحة، وجاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

الوصف بالوجل والخوف، وهو أيضاً للمؤمنين، فهل هناك اختلاف وتناقض؟
الجواب: إن المؤمنين إذا علموا ما أعدّه الله لهم في الجنة - دار الكرامة - مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر - إذا علموا ذلك - استبشروا وفرحوا واطمأنوا وتهيؤوا للنعيم المقيم، وعند هذا

يقول الفخر الرازي: وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي، والصفة الثانية دلت على ترك الرياء في الطاعات، والصفة الثالثة دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين، رزقنا الله سبحانه الوصول إليها. آمين^(١).

والإمام القرطبي له ملحظ جدير بي أن أنقله يخص أدياء ظنوا أنفسهم أنهم من الوجلين الخائفين وهم واهمون في حالهم. يقول الإمام القرطبي عن الخوف في الآية: فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير.

فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجدّ وخشوع: إنك لم تبلغ أن تساوي حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك كانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله، والبكاء خوفاً من الله، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥٩/١٢، ٣٦٦/٧.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/١٠٧-١٠٨.

تكون الطمأنينة والسكينة.

وعلى المقابل: إذا علموا ما أعدّه الله للعاصين والظالمين في النار، التي ترمي بشرر كالقصر، وفيها من أصناف الإهانة ما فيها: المهل، والصديد، والمقامع من حديد، والتميز من الغيظ، والطمع في المزيد حتى يقول الله لها: هل امتلأت وتقول هل من مزيد؟ فهي ممزوجة بغضب الجبار، أعاذنا الله منها.

إذا علم المؤمن ذلك خاف واقشعر واضطرب والتجأ إلى جناب الرحمن الرحيم ليقية الشر والعذاب، وهنا يكون الوجل، والمؤمن الذي يحمل بين جنبيه قلباً يطمع في رحمة الله ويخشى عذابه هو مؤمن تحققت فيه غاية أوصاف المؤمنين المتقين.

وقد جمع الله عز وجل هذه الأوصاف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ لَدَيْهِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقْشَعُرٍ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

الإنبابة:

من صفات القلوب السليمة «الإنبابة» وهي كما يقول الراغب: «النوب: رجوع الشيء مرة بعد أخرى، يقال: ناب نوباً ونوبة، وسميت النحل نوباً لرجوعها إلى

مقارها، والإنبابة إلى الله تعالى: الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل^(١).

ووصف القلب بالإنبابة التي هي الرجوع إلى الله تعالى؛ لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب^(٢).

يقول الفخر: القلب المنيب هو القلب الخالي من الشرك، ومن سلم قلبه من الشرك ترك غير الله، ورجع إلى الله وحده فكان منيباً. ومن أناب إلى الله برئ من الشرك فكان سليماً^(٣).

ولم تقترب الإنبابة بالقلب في الاستعمال القرآني إلا مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ^(٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ^(٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ ^(٣٣) بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ^(٣٤) [ق: ٣١-٣٣].

والمعنى: وقربت الجنة للمتقين إكراماً واحتفاءً بهم على سبيل المبالغة، ويقال لهم: هذا الذي تروونه من النعيم هو ما وعده الله لكل أواب رجاع إلى الله، حافظ لعهد، خائف مطيع طاعة متيقن، يعلم أن الله حري بذلك، وجاء هذا الخائف ربه بقلب خاضع خاشع لله مقبل على طاعته مخلص، فلا يشوب توحيده شائبة.

وعلاوة القلب المنيب كما يقول أبو بكر

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٠٨.

(٢) انظر: الكشف، الزمخشري ٤/ ١١.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٧٧.

الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة إلى بدر، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب؛ ليطعم بها إذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيئاً وبقيت العشرون أوقية من ذهب معه.

فلما أسر أخذت منه، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: (أما شيءٌ خرجت به لتستعين به علينا فلا نتركه لك). وكان العباس قد فدى أخاه عقیل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث، فقال العباس: يا محمد تتركني أتكفف قريباً ما بقيت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأين الذهب الذي دفعته لأُم الفضل وقت خروجك من مكة به وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهذا المال لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم، يعنب بين بنيه). فقال العباس: وما يدريك يا ابن أخي؟ قال: (أخبرني به ربي). فقال العباس: أنا أشهد أنك صادق وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنت عبد ورسوله، فإني أعطيتها إياه في سواد الليل، ولم يطلع عليه أحد إلا الله، وأمر ابني أخيه عقیلاً ونوفل بن الحرث فأسلما، فذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني: الذين

الوراق: أن يكون عارفاً لحرمة الله، ومواليًا له، ومتواضعاً لجلاله وتاركاً لهوى نفسه^(١). إذن فالرجوع الدائم لجنان الحق عين الإنابة التي هي صفة عظيمة من صفات القلب السليم.

الخيرية: من صفات القلب السليم «الخيرية»، والخير: ما يرغب فيه من المستحسنات كالعدل والفضل والشيء النافع والخير يقابل به الشر مرة، والضر مرة أخرى، فمن الأول قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [الأنعام: ١٧].

والخير يفسر على وجوه منها الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: يأتاكم ربكم الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفورٌ رحيمٌ ۝﴾ [الأنفال: ٧٠].

قال ابن عباس: إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وتصديقاً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم، نزلت في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أحد العشرة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢١/١٧.

أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء ﴿إِنْ يَسْلَمْ﴾
 اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يعني: إيمانًا وتصديقًا
 ﴿يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ يعني: من
 الفداء، ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ يعني: ما سلف منكم
 قبل الإيمان ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني:
 لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه، رحيم
 بأهل طاعته.

قال العباس: فأبدلني الله خيرًا مما أخذ
 مني عشرين عبدًا كلهم تاجر يضرب بمال
 كثير، أدناهم يضرب بعشرين ألفًا مكان
 العشرين أوقية، وأعطاني زمزم وما أحب
 أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر
 المغفرة من ربي عز وجل^(١).

الطهر:

الطهارة في الأصل: الوضوء والنظافة.
 يقال من ذلك: تطهر يتطهر فهو متطهر
 ومطهر، والظهور: الماء، ويقال: فلان طاهر
 الثياب إذا كان نقيًا من الدنس والوسخ.

وقد ذكر أهل التفسير أن الطهارة في
 القرآن على ثلاثة عشر وجهًا:

منها ما يتعلق «بطهارة القلب من الريبة.
 ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمْ
 النِّسَاءَ فَلَمَّا تَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ
 أَنْزِلَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ
 بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ
 أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢٣٢] يريد أظهر لقلب الرجل والمرأة
 من الريبة. وفي الأحزاب: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ
 لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِيطِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
 فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ
 لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِي
 مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِي مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا
 سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ
 ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ
 لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا
 أَنْزِلَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ
 عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ [الأحزاب: ٥٣].

أي: وإذا سألتن نساء رسول الله صلى
 الله عليه وسلم حاجة من أواني البيت
 ونحوها فاسألوهن من وراء ستر؛ ذلكم
 أظهر لقلوبكم وقلوبهن من الريبة والدنس؛
 فالرؤية سبب الفتنة؛ لأن العين روزنة القلب،
 أي: موصل صورة الأشياء إلى القلب. فإذا
 لم تر العين لا يشتبه القلب، فالقلب عند
 عدم الرؤية أظهر وعدم الفتنة حيث أظهر،
 ومن هنا كان فرض الحجاب، فالإسلام
 حريص على تجنب أبنائه مخاطر الاختلاط
 إبعادًا لهم عن الريبة والتهمة، وذلك أحسن
 للحال، وأحصن للنفس^(٢).

وحيث إن الآية السابقة قد احتوت على

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي
 ٢٢٧/١٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢٦/٢٦.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦٣/١٠.

صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء^(١).

يقول ابن القيم: فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق، وتوضعت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله»^(٢).

فالقلب الطاهر - لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث - لا يشبع من القرآن ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائم الأغذية التي تلائم الصحيح.

وقد دلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل المنحرفين للحق لم يحصل لها طهارة. ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في

مطهرات القلوب؛ تعليةً للمسلمين؛ وتبييناً للموحدين؛ فإن آية سورة المائدة تبرز أوصاف قوم جنحوا إلى النفاق، واستقر في قلوبهم فكتب الله عليهم عدم طهارة القلب. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُوا لِلْكَذِبِ سَمَّعُوا لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحُكْمٍ وَلَا بِإِذْنٍ مِنْ بَعْدِ مَا أُضِيعُوا يَقُولُونَ إِنَّا أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

فالإشارة في ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المذكورين من المنافقين واليهود، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفساد، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، أي: من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهماكهم فيهما، وإصرارهم عليهما، وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية بالكلية، كما ينبئ عنه وصفهم بالمسارعة في الكفر أولاً، وشرح فنون ضلالهم آخرًا.

والجملة استئنافية مبينة لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم، وقبح

(١) إغاثة اللفهان، ابن القيم ١/ ٥٥.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٥٨.

الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه.

ولهذا حرم الله سبحانه وتعالى الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين؛ ولهذا يقال لهم: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طَيِّبَةً فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

أي: ادخلوها بسبب طيبكم، فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاسته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية كالكاfer لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، والله سبحانه وتعالى بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك الجنة فيها طهارتان طهارة البدن، وطهارة القلب فطهارة البدن بالماء، وطهارة القلب بالتوبة، فالذي يجتمع له الطهران يصلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته^(١).

وقد حمل جمهور المفسرين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ قُورَانِدُ ١﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِيرُ ٢﴾ [المدر: ١-٤].

حملوا الأمر بتطهير الثياب على تطهير القلب، يقول ابن القيم: «وجمهور

المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق^(٢).
إذا فطهارة القلب من أعظم صفات المدح والثناء، وعدم طهارته من أعظم أسباب الشقاء والازدراء.

الاهتداء:

من صفات القلب السليم: الاهتداء أي: التسليم لله تعالى والرضا بحكمه سبحانه. والهداية: دلالة بلطف، ومنه الهدية، وخص ما كان دلالة بهديت، وما كان إعطاء بأهديت.

فإن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمْدُومُ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

قيل: إن ذلك على سبيل التهكم والمبالغة في المعنى كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]^(٣).

وقد فسر العلماء هداية القلب على وجوه تختلف اختلاف تنوع فقالوا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

أي: للثبات والاسترجاع عند حلول المصائب، وقد عمد البيضاوي إلى هذا التفسير؛ لأن المؤمن مهتد أصالة، وقال أهل المعاني: يهد قلبه للشكر عند الرخاء،

(٢) المصدر السابق ص ٦٢.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٣٨.

(١) انظر: إغاثة اللفهان، ابن القيم ص ٦٣-٦٤.

والصبر عند البلاء^(١).

عن ابن عباس قال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه^(٢).

وخلاصة القول: أن هداية القلب تعني: انفساحه ورضاه بكل ما قدره الله عامة، وما ينزل من المكروه خاصة، كالموت والمرض والفقر والقحط، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

وبهذه الصفة نتهي من تناول صفات السلامة في القلب، لنشرع في تناول صفات القلب المريض.

ثانيًا: القلب المريض.

ويتصف هذا القلب المريض بعدة صفات، منها:

١. القسوة.

من صفات القلوب المريضة القسوة. والقسوة: غلظ القلب، وأصله مأخوذ من قول القائل: هذا حجر قاس، أي: صلب^(٣). وقد وردت هذه الصفة في آيات متعددة من القرآن الكريم مرتبطة بالقلب: مرتان (قسى أشد قسوة) في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وردت هذه الآية الكريمة في معرض الحديث عن مخازي بني إسرائيل ومساوئهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: صلبت قلوبكم، فلا يؤثر فيها وعظ ولا تذكير ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد المعجزات الباهرة التي رأتموها بأم أعينكم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة؛ لأن الحجارة قد تنصدع مسببة بذلك مصلحة للناس، أما قلوبكم فلا تلين ولا تتأثر.

والثالثة: في قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِنْهُمْ لَعْنُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً﴾ [المائدة: ١٣].

فبسبب نقض هؤلاء اليهود لعهودهم المؤكدة طردهم الله من رحمته، وجعل قلوبهم غليظة لا تلين للإيمان.

والرابعة: في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

والخطاب في الآية الكريمة للأمم المكذبة الذين لم يلاقوا البلاء بالضراعة لله؛

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/١٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥٧/١٤.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٧١.

ليرفع ما نزل بهم من بأس، بل لاقوه بالعناد والقسوة والصلابة.

والخامسة: في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣﴾ [الحج: ٥٢-٥٣].

والآيتان تثبتان أن الشيطان يلقي وسوسه أثناء قراءة كتاب الله على لسان كل نبي وكل رسول للصد عن اتباع الوحي، لكن الله يبطل كيد الشيطان ويثبت آياته، وما كان هذا الفعل من الشيطان إلا ليجعله الله اختباراً للذين في قلوبهم شك ونفاق، ولقساة القلوب من المشركين الضالين.

والسادسة: في قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة: ١٣].

والآية تتحدث عن بعض مخازي بني إسرائيل التي منها نقض الميثاق والتي تسببت في طرد الله إياهم من رحمته ولعنهم

وجعل قلوبهم غليظة لا تلين للإيمان.

والسابعة: في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: ١٦].

الآية تحمل ترغيباً للمؤمنين على رقة القلب، والخشوع لله تعالى عند سماع وحيه الشريف، والحذر من التشبه باليهود والنصارى، في قسوة قلوبهم وغلظتها وفسقهم.

وقد أرشدنا العلماء إلى علاج لهذا المرض العضال، ومن ذلك ما صورته العلامة الألوسي بقوله: «ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عباد، والناس رجلان مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية، ومن أحس بقسوة في قلبه فليهرع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، يرجع إليه حاله، كما أشار إليه قوله عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

فهو تمثيل ذكر استطراداً لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث؛ للترغيب في الخشوع، والتحذير عن القساوة»^(١).

(١) روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ١٨١.

وحتى عصرنا الحاضر، فلا عهد لهم ولا ميثاق ولا ذمة، الخيانة طبعهم، والنفاق صنيعهم، والغدر ديدنهم، والكفر أسهم وأصلهم.

مسألة: ذكر الله سبحانه وتعالى أن اطمئنان القلب لصيق الذكر ورفيقه، فكيف يتج ذكر الله عز وجل قسوة، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

يجيب العلامة الفخر فيقول: «إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات، شديدة الميل إلى الطباع البهيمية والأخلاق الذميمة فإن سماعها لذكر الله يزيد لها قسوة وكدورة.

وتقرير هذا الكلام بالأمثلة: فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوايل، كنور الشمس يسود وجه القصار، ويبيض ثوبه، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح، وقد نرى إنساناً يذكر كلاماً واحداً في مجلس واحد فيستطيعه واحد ويستكرهه غيره، وما ذلك إلا ما ذكرناه

من اختلاف جواهر النفوس، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس، ولما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وكان قد حضر

هناك عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإنسان آخر، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه

من آثار القسوة:

١. الاجترار على تحريف كلام الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

٢. الغش: قرأ حمزة والكسائي: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ مأخوذ من قولهم: درهم قسي: أي زيف، أي: قلوبهم مغشوشة، ليست خالصة. (١).

٣. عدم التذلل للخالق، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

يقول المحقق الألوسي: «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، هذا محمول على التوبيخ والتنديد، وهو يفيد الترك وعدم الوقوع؛ ولذا ظهر الاستدراك والعطف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. والتضرع: التذلل بالتوبة من الكفر، وهو منفي هنا؛ لأن التضرع ناشئ من القلب، فنفيه نفية.

فكانه قيل: فما لانت قلوبهم ولكن قست (٢).

وهذا ليس بغريب على الكفار ولا على بني إسرائيل من لدن موسى عليه السلام

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢٧٠/٤.

(٢) روح المعاني ١٧/١٧٤.

وسلم إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأَتْهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ قال كل واحد منهما: ﴿قَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اكتب فهكذا نزلت) فازداد عمر إيماناً على إيمان، وازداد ذلك الإنسان كفراً على كفره.

إذا عرفت هذا لم يبعد أيضاً أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية، ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية.

وإذا عرفت هذا فنقول: إن رأس الأدوية التي تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله سبحانه وتعالى، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله سبباً لازدياد مرضها فكان مرض تلك النفوس مرضاً لا يرجى زواله، ولا يتوقع علاجه، وكانت في نهاية الشر والرداءة؛ فلهذا المعنى قال سبحانه وتعالى: ﴿قَوْلٌ لِلنَّفْسِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢] (١).

ولا غرابة أليس قد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

٢. الريب.

الريب في الأصل مصدر رابني الشيء إذا حصل فيك الريبة وهي قلق النفس واضطرابها، والريبة وإن اشتهرت في معنى الشك إلا أن معناها الأصلي قلق النفس واضطرابها إلا أنه عدل عن معناه المصدري واستعمل في معنى الشك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي نظائره لكونه سبباً لقلق النفس واضطرابها على طريق إطلاق اسم المسبب وإرادة السبب، والشك وقوف النفس بين شيئين متقابلين بحيث لا ترجح أحدهما على الآخر فتقع في الاضطراب والحيرة، ومن هنا فإنه لا ريب في القرآن صادر ممن آمن به؛ ولذلك نفى الله عز وجل عن المؤمنين الارتباب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] (٢).

(٢) حاشية زاده علي البيضاوي ١/ ٧٥.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٦٦-٢٦٧.

في قلوبهم من مرض النفاق، أم شكوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟!

الثالث: قوله سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٧) لَا نَقَمُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِيَوْمٍ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُمْ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٠) [التوبة: ١٠٧-١١٠].

ولنا وقفة مع هذه الآية الكريمة التي بينت حال المنافقين وأظهرت دينهم وديندهم - وهم أهل الريب وأُس التشكيك والشك - من خلال هذه الفعلية الآثمة التي فعلوها مع نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم وسجلها الله عز وجل في قرآنه لتحذره، ونعد العدة لفضح مؤامراتهم وعدم تصديقهم أو السير في ركبهم، هذه الفعلية التي فعلوها ببنائهم مسجد الضرار، فقد بناه المنافقون بهدف مضارة المؤمنين وكيدهم ونصرة الكفرة والكافرين.

وقد جاء الريب مقترنا بالقلوب في مواضع كلها تخص المنافقين:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٤٥) [التوبة: ٤٥].

هذه الآية الكريمة تتحدث عن المنافقين إذ هم الذين كانوا يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الجهاد معه، من غير عذر بين، وهم الذين شكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثوابه أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه فهم في شكهم متحIRON، وفي ظلمة الحيرة مترددون، لا يعرفون حقاً من باطل، فيعملوا على بصيرة.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٥٨) وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُمْ لُغُو يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ (٥٩) أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يُسَالِفُوا بَيْنَهُمْ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَقْتُلُوهُنَّ أَوْ يَمُوتُنَّ فِي الْحَرْبِ وَإِذَا دُعُوا إِلَيْهِنَّ قُلْنَ إِنَّ نِجَابَنَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَحْنُ فَاعِلَاتُ اللَّهِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمُنَافِقَةِ أُولَٰئِكَ يَنْفَرُونَ (٦٠) [النور: ٤٨-٥٠].

في شأن المنافقين بين سبحانه أن من خصالهم الذميمة أنهم إذا دعوا في خصوماتهم إلى ما في كتاب الله وإلى رسوله؛ ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرض لا يقبل حكم الله وحكم رسوله، مع أنه الحق الذي لا شك فيه. ثم يستفهم القرآن استفهاماً إنكارياً قائلاً: أسبب الإعراض ما

وهذا الهدف لم يظهره فلا ننس أنهم منافقون، وليقسمن ما أردنا بينائه إلا الخير، والله يعلم كذبهم في ذلك، ثم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿لَا تَقْرَفْ فِيهِ أَبَدًا﴾ لأن هذا المكان لم يبن إلا ليكون معقلًا للنفاق وأهله، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى ما يتعلق بمسجد قباء، وما على شاكلته من بيوت الله الخالصة له وحده، فيقول: لمسجد أسس على التقوى من بداية أمره أحق أن تقوم فيه؛ لأن فيه رجالاً مؤمنين أطهاراً، والله يحب من كان كذلك، والله يحب المطهرين.

ثم يعقب ذلك باستفهام إنكاري: أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، كمن أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط فسقط به في نار جهنم؟! والله لا يوفق الظالمين إلى الرشاد، لا يزال بنيانهم الذي بنوه ريبة في قلوبهم.

يقول الفخر: المعنى: إن بناء ذلك البنيان صار سبباً لحصول الريبة في قلوبهم فجعل نفس ذلك البنيان ريبة لكونه سبباً للريبة؛ ولكونه سبباً للريبة وجوه:

منها: أن المنافقين عظم فرحهم ببناء مسجد الضرار، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازداد بغضهم له، وازداد ارتيابهم في

نبوته^(١).

وحاصل المعنى: لا يزال هدم بنيانهم الذي بنو سبباً للقلق والاضطراب والوجل في القلوب^(٢).

هذه الريبة تمكنت من قلوبهم، ولن تخرج إلا بعد مفارقة الروح للجسد، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تتصدع قلوبهم فيموتوا.

وذلك كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (١٦)﴾ [الحاقة: ٤٦].

لأن الحياة تنقطع بانقطاع الوتين^(٣). فلاستثناء في ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ من أعم الأوقات أو من أعم الأحوال، وما بعد ﴿إِلَّا﴾ في محل النصب على الظرفية، أي: لا يزال بنيانهم ريبة في كل وقت إلا وقت تقطع قلوبهم.

أو في كل حال إلا حال تقطعها، أي: تفرقها وخروجها عن قابلية الإدراك وإضممار الشرك بحيث لا يزول منها ما داموا أحياء إلا إذا انقطعت وفرت، وحيث تخرج منها الريبة وتزول، وهو خارج مخرج التصوير والفرض.

وقيل: المراد بالتقطيع ما هو كائن بالموت من تفرق أجزاء البدن حقيقة،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/٢٠٢.

(٢) روح المعاني، الألوسي ١١/٢٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/٢٦٦.

ويروي ذلك عن بعض السلف.
وأخرج ابن المنذر وغيره عن أيوب، قال: كان عكرمة يقرأ: (إلا أن تقطع قلوبهم في القبور) ^(١).
وقيل: إلا بمعنى إلى، بدليل أنه قرئ بها شاذاً ^(٢).
وغيره من ذلك قول العرب، غللت الشيء في الشيء إذا أثبت فيه، كأنك غرزته، ومن الباب الغل، وهو الضغن ينغل في الصدر. ^(٤)
وقيد القرطبي الغل بالكمون في الصدر حيث قال: «الغل: الحقد الكامن في الصدر» ^(٥).

وهو العداوة، وغل يغل: إذا خان، وأغل: أي: صار ذا أغلال، أي: خيانة ^(٦).
وفي استعمال القرآن الكريم جاء الغل مرتبطاً بالقلب صراحة في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْشَوْنَ مِنْ هَاجَرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحْشَوْنَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٠﴾
وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١١﴾ [الحشر: ٩-١٠].

وقد بين المولى سبحانه وتعالى في هذه الآية بعضاً من سجايا الأنصار وأخلاقهم، فيقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ أي: اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه من قبل كثير من المهاجرين يحبون من هاجر إليهم فيمدونهم

وهذه الآية تؤكد ثوابت هذا البحث من أن القلب هو محل أمور الإنسان، يقول الفخر: «وارتابت قلوبهم: يدل على أن محل الريب هو القلب فقط، ومتى كان محل الريب هو القلب كان محل المعرفة والإيمان - أيضاً - هو القلب؛ لأن محل أحد الضدين يجب أن يكون محلاً للضد الآخر؛ ولهذا السبب قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وإذا كان محل المعرفة والكفر القلب، كان المثاب والمعاقب في الحقيقة هو القلب، والبواقي تكون تبعاً له ^(٣).
٣. الغل.

من الصفات المذمومة التي تمرض القلب وتجعله ذا علة «الغل».
الغل بالكسر مصدر غل يغل بمعنى غش وحقد، والغين واللام أصل صحيح يدل على تخلل شيء، وثبات شيء، كالمشيء

(١) روح المعاني، الألويسي ٢٤/١١.

(٢) انظر: حاشية الجمل ٣/٣٢٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٨٠/١٦.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/٣٧٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٩/٢٢٢.

(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٣.

المؤمنين، وحث على الدعاء للصحابه،
وتصفية القلوب من بغض أحد منهم.

سمع رجل وهو يتناول بعض
المهاجرين، فدعي فقراً عليه قوله تعالى:
﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: ٨] الآية.

ثم قيل له: هؤلاء المهاجرون أفمنهم
أنت ؟ قال: لا، ثم قرأ عليه: ﴿وَالَّذِينَ
جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية. ثم قال أفمن هؤلاء
أنت ؟ قال: أرجو. فرد عليه: لا والله ليس
من هؤلاء من سب هؤلاء، فكان أعظم ما
تميز به الصحابة رضوان الله عليهم خلو
قلوبهم من الغل.

وخلو القلب من الغل كان سبباً في أن
الصحابة - رضوان الله عليهم - حاروا في
رجل وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه
من أهل الجنة، وما كانت فيه ميزة أعظم من
أنه يبيت وليس في قلبه غل ولا حقد ولا
حسد لأحد من المسلمين.

(فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى
الله عليه وسلم قال - في أيام ثلاثة - (يطلع
عليكم الآن رجل من أهل الجنة) فطلع فيها
رجل من الأنصار، فبات معه عبد الله بن
عمرو بن العاص ثلاث ليال مستكشفاً حاله،
فلم ير له كثير عمل، فأخبره الخبر، فقال له:
ما هو إلا ما رأيت، غير أنني لا أجد في نفسي
غلاً لأحد من المسلمين، ولا أحسده على

بالأموال وينزلونهم منازلهم ويحتفون بهم
أيما احتفاء، وفوق هذا كله لا يجدون حزاة
ولا غيظاً مما أعطى المهاجرون من الغنيمة
دونهم، ويفضلون غيرهم بالمال وغيره،
ولو كانوا في غاية الاحتياج إليه، ومن حماه
الله من البخل والجشع والطمع فأولئك هم
الموفقون في الدنيا، المفلحون في الآخرة،
والذين جاؤوا من بعدهم وهم التابعون لهم
بإحسان في كل زمان ومكان يدعون ربهم
قائلين: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين
الذين سبقونا بالإيمان بك، ولا تجعل في
قلوبنا بغضاً ولا حسداً لأحد من المؤمنين
الموحدين، ربنا إنك رؤوف رحيم فاستجب
وتقبل منا يا ربنا.

وهاتان الآيتان بفضل الله تعالى استوعبتا
جميع شرائع المؤمنين في الدنيا.
يقول الفخر الرازي رحمه الله تعالى:
«اعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع
المؤمنين؛ لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار
أو الذين جاؤوا من بعدهم، وبين أن من
شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار
أن يذكر السابقين - وهم المهاجرون
والأنصار - بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن
كذلك، بل ذكرهم بسوء كان خارجاً من
جملة أقسام المؤمنين حسب نص الآية»^(١).
وفي الآية ذم للغل إذا كان على أحد من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/٢٨٩.

وأصله يستعمل في الأجسام، لكن قد يستعار للمعاني، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَنِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكَافِرِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] أي: خشونة أو قسوة^(٢).

وأحسن ما قيل في الغلظة ما قاله القرطبي: «وغلظ القلب: عبارة عن تجهم الوجه، وقلة الانفعال في الرغائب، وقلة الإشفاق والرحمة.

وقد وردت هذه المادة في آي القرآن الكريم، من ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ قَفْظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هذه الآية الكريمة وردت في معرض الحديث عن غزوة أحد، وذلك في سورة آل عمران، هذه الغزوة التي أصيب فيها المسلمون بمصيبة عدم النصر؛ وذلك لأمر متعده يعلمها الله عز وجل منها عدم تطبيق الصحابة رضوان الله عليهم أوامر النبي صلى الله عليه وسلم، فكان حاله صلى الله عليه وسلم بين العقاب والعتاب للمخالفين، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ أي: فبسبب رحمة من الله

خير أعطاه الله تعالى إياه.

فقال له عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطبق.

وفي رواية أنه قال: لو كانت الدنيا لي فأخذت مني لم أحزن عليها، ولو أعطيتها لم أفرح بها، وأبيت وليس في قلبي غل على أحد.

فقال عبد الله: لكني أقوم الليل وأصوم النهار، ولو وهبت لي شاة لفرحت بها، ولو ذهبت لحزنت عليها، والله لقد فضلك الله تعالى علينا فضلاً بيناً^(١).

وبعد:

فالغل من الأمراض الفتاكة بالقلوب، وعلاجه القناعة بقسم الله للعبد، وعدم التطلع إلى الغير؛ لأن ذلك يورث القلب همًا، والهم يتج حقدًا وحسدًا، ولا يجوز لمسلم أن يحمل في صدره هذا الداء إلا في حالة واحدة، ويكون عين الداء أصل الدواء، هذه الحالة تكون عندما يوجه الحقد والغيط والغل لأعداء الإسلام والمسلمين، لا من المسلم ضد أخيه المسلم.

٤. الغلظة.

من صفات القلوب المريضة: الغلظة. الغلظة ضد الرقة، يقال: غُلْظَةٌ وَغُلْظَةٌ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٦٦/٣، رقم ٢٥٦.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٥.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٤.

﴿الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبُّهُمْ رُكْعًا سَجَدًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وتحقيق القول فيه: أن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان، والفضيلة وسط، فورود الأمر بالتغليظ تارة وأخرى بالنهي عنه إنما كان لأجل أن نتباعد عن الإفراط والتفريط فيبقى الأمر وسطا وكذلك جعلناكم أمة وسطاً^(٢).

والمراد بالوسطية العدل باستعمال الرأفة والرحمة من المؤمنين، والغلظة والشدّة مع الكافرين لا سيما في الجهاد. إذن فالغلظة من أمراض القلوب التي يجب على المؤمن أن يتنزه عنها. ٥. اللهو.

من الصفات الممرضة للقلب: اللهو. واللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. يقال: لهوت بكذا، ولهيت عن كذا: اشتغلت عنه بلهو قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]. ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَهْوٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ويعبر عن كل ما به استمتع باللهو. قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْحِلَ لَمَوْا﴾ [الأنبياء: ١٧]. وهو مأخوذ من قول العرب، لهيت عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه، ألهى لهياً^(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٦٦.

أودعها قلبك يا محمد صلى الله عليه وسلم فالت جانبك لأصحابك مع مخالفتهم، ولو كنت جافي الطبع، قاسي القلب لتفرقوا عنك، ونفروا منك، فاعف عنهم، واصفح واطلب المغفرة لهم، وأعد إليهم ثقتهم بالله، ثم بأنفسهم وذلك بمشورتك إياهم في الأمر، فإذا عزمت وصممت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين عليه، والآية يحمل مضمونها نفياً صريحاً لكل معاييب الأخلاق عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنها الفظاظة والغلظة كما بين عبد الله ابن عمرو في حديث البخاري في وصف النبي صلى الله عليه وسلم من أنه (ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر)^(١).

الفظاظة: الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلًا.

والله سبحانه وتعالى منع نبيه صلى الله عليه وسلم من الغلظة، وأمره بالغلظة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَرِيسَ الْمَصِيرِ﴾ [التحريم: ٩].

فها هنا نهاء عن الغلظة على المؤمنين، وهناك أمره بالغلظة مع الكافرين، فهو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ لَوْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزُّوْا عَلَى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)، الفتح ٨/ ٤٧٥.

والجد، وإن كنا نرى الله في الجوارح، إلا أنه في الحقيقة لو لم يله القلب لما لهى عضو من أعضاء الجسد، أليس القلب رئيسه وسيد المطاع.
٦. الزيف.

ورد الزيف في القرآن العظيم في آيات متعددة بلغت ثمانيا منها أربعة متصلة بالقلب، ثتان منها في سورة آل عمران هما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحَكِّمُ هُنَّ أَمْ الْكِتَابَ وَأَخْرَ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٧-٨].

والثالثة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة: ١٧].

والرابعة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِإِصْرٍ كَثِيرٍ قُلُوا لِرَبِّكُمْ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الصف: ٥].

ولهيأنا^(١).

فاللهو: سهو وإعراض وتشاغل وذهول وغفلة عن الحق، وقد جاء اللهو مقترنا بالقلب في الاستعمال القرآني في قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ بَيْنَ رَبِّهِمْ تَخَدُّثٌ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَأَهْلِيَّةٌ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَكَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء: ١-٣].

مطلع سورة الأنبياء يحمل تخويفاً وترهيباً وإنذاراً، تحسباً لقرب وقت حساب الناس على أعمالهم، وهم مستغرقون في شهواتهم غافلون عن اليوم الذي تشيب له النواصي.

وغفلتهم وإعراضهم لكونهم لا يعيرون بالقرآن، فما يأتيهم من شيء من القرآن متجدد النزول فيه عظة لهم وتذكير إلا استمعوه وهم يلعبون استهزاء ﴿لَأَهْلِيَّةٌ قُلُوبُهُمْ﴾ والمعنى: أنهم وإن فطنوا فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفتنوا أصلاً، وثبتوا على رأس غفلتهم وسهولهم وذهولهم عن التأمل والتبصر بقلوبهم^(٢).

فاللهو والتشاغل عن ذكر الله من صفات القلوب المريضة التي تحول بين القلب

(١) انظر المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٤٨.

(٢) الكشف، الزمخشري ٢/ ٥٦٢.

ومعنى الزيف: الميل عن الاستقامة، والترايف: التمايل، ورجل زائف وقوم زاغة وزائفون^(١).

وعلى ذلك فالزيف إذا أضيف إلى القلوب كان معناه ابتعادها عن الاستقامة، وابتعادها عن الاستقامة يعني: جنوحها إلى الضلال، وقد ورد دعاء المؤمنين ألا يميل سبحانه قلوبهم إلى الباطل بعد أن هداهم للإيمان الحق في قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُفِضْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝﴾ [آل عمران: ٨].

ومعنى ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: امنحنا من فضلك وكرمك رحمة تثبتنا بها على دينك الحق، إنك أنت الوهاب المتفضل على عبادك بالعطايا والمنح.

وهذا الدعاء^(٢) يحتمل أن يكون من تمام مقالة الراسخين، ويحتمل أن يكون على معنى التعليم، أي: قولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُفِضْ قُلُوبَنَا﴾ عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه بعد إذ هديتنا إلى معالم الحق من التفويض في المتشابه أو الإيمان بالقسمين أو التأويل الصحيح.

يقول الألوسي: ﴿لَا تُفِضْ قُلُوبَنَا﴾ أي: لا تضلنا بعد الهداية؛ لأن زيف القلوب في مقابلة الهداية، ومقابل الهداية الإضلال،

وصحة نسبة ذلك إلى الله تعالى مذهب أهل السنة في أفعال العباد الظاهرة.

ومذهب أهل السنة: أن القلب صالح لأن يميل إلى الإيمان، وصالح لأن يميل إلى الكفر، ويمتنع أن يميل إلى أحد الجانبين إلا عند حدوث داعية وإرادة يحدثها الله تعالى، فإن كانت تلك الداعية داعية الكفر فهي الخذلان والإزاعة والصد والختم والطبع والرین والقسوة والوقر والكنان، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن.

وإن كانت تلك الداعية داعية الإيمان فهي التوفيق، والرشاد، والهداية، والتسديد، والنشيت، والعصمة، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن الكريم.

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي الدرداء، قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقيني قال: اجلس بنا نؤمن ساعة. فيجلس نتذكر الله تعالى على ما يشاء، ثم قال: يا عويمر هذه مجالس الإيمان، إن مثل الإيمان ومثلك كمثلك قميصك، بينا أنت قد نزعته إذ لبسته، وبيننا أنت قد لبسته إذ نزعته، يا عويمر للقلب أسرع تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً^(٣).

والإزاعة عقوبة ربانية لكل من اجتراً على الله عز وجل. يقول القرطبي: «هذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢١٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٩٣.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٣/ ٩٠.

القلب عما لا ينبغي مقدم على تنويره بما ينبغي، فهؤلاء المؤمنون سألوا ربهم أولاً أن لا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل والعقائد الفاسدة، ثم إنهم ابتغوا ذلك بأن طلبوا من ربهم أن ينور قلوبهم بأنوار المعرفة وجوارحهم وأعضائهم بزيينة الطاعة^(٥).

ثالثاً: القلب الميت.

ويتصف هذا القلب المريض بعدة صفات، منها:

١. العمى.

من أمراض القلوب العمى، والعمى كما يقول الراغب: يقال في افتقاد البصر والبصيرة، ويقال في الأول: أعمى، وفي الثاني: أعمى وعم، فمن الأول: ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ٢].

ومن الثاني: ما ورد من ذم العمى في القرآن، نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨].

وقوله: ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ [المائدة: ٧١]. بل لم يعد افتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة عمى، وجمع أعمى: عمي وعميان، وهو يحتمل لعمى البصر والبصيرة معاً^(٦).

وعند ابن فارس: «العين والميم والحرف

وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران»^(١).

ومن عدله سبحانه وإحسانه أن رتب عقابه بالإزاعة على إجرام العبد في حق نفسه بالزيغ ابتداءً. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

أي: فلما أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذي جاء به عليه الصلاة والسلام واستمروا عليه ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو العمى والضلال^(٢). فهم أولاً مالوا عن الحق فكان المترتب عليه إمالة الله لقلوبهم عن الهدى.

وقيل: فلما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعة الرب خلق الله الضلالة في قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم^(٣).

وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى^(٤).

يقول العلامة الفخر: «اعلم أن تطهير

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/٤.

والمقصود بالآية في كلام القرطبي، آل عمران رقم ٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨٥/٢٨.

(٣) المصدر السابق ٨٢/١٨.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١٣/٢٩.

(٥) المصدر السابق ١٩٦/٧.

(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٤٨.

المعتل أصل واحد يدل على ستر وتغطية^(١). وقد ورد العمى مقترنا بالقلب في الاستعمال القرآني في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آفَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

يخاطب المولى تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أهل مكة، وكل من على شاكلتهم، فيقول: أفلم يسيروا: أي: يسافروا ويرتحلوا ويسيحوا في الأرض؛ ليشاهدوا ما حل بالكافرين من هلاك ودمار فيعتبروا بهم وبما حل بديارهم، وهلا عقلوا ما يجب أن يعقل من الإيمان والتوحيد فتكون لهم آذان يسمعون بها المواعظ الزاجرة، فليس العمى على الحقيقة عمى البصر، ولكن العمى عمى البصيرة. فكم من مبصر حسياً كزرقاء اليمامة^(٢) حدة في الإبصار، ولكنه أعمى في ذات الوقت فلا يرى الحق فيهتدي ولا الباطل فيجتنب.

ويعبر الإمام الغزالي بعباراته المتفردة عن العمى فيقول: «المعاصي دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يتراكم

عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوباً عن الله.

ومهما تراكت الذنوب طبع على القلوب، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين، ويستهيئ بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا، ويصير مقصور الهم عليها، فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن، ولم يستقر في القلب، ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك ﴿قَدْ يَسْأَلُونَكَ الْآخِرَةَ كَمَا يُسْأَلُ الْكَافِرِينَ مِنْ أَحْسَنِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]^(٣) أقوال العلماء في عمى القلب، أعاذنا الله منه.

يقول المحقق الألوسي أثناء تفسيره آية الحج السالفة: «لا يعتد بعمى الأبصار، وإنما يعتد بعمى القلوب، فكأن عمى الأبصار ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب، فالكلام تذييل لتحويل ما أبهم من عدم فقه القلب، وأنه العمى الذي لا عمى بعده، بل لا عمى إلا هو.

أو المعنى: أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها، وإنما العمى بقلوبهم، فكأنه قيل: أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب ذات بصائر، فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بإبصار عيونهم، وهي الآفة التي كل آفة دونها، فكأنه يحثهم على إزالة المرض،

(٣) إحياء علوم الدين ١٢/٣.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/١٣٣.

(٢) كانت امرأة عربية حادة البصر تنظر إلى مسافة بعيدة على غير قياس، فكانت مضرب المثل في قوة الإبصار.

انظر: خزنة الأدب ٢/٣١٩.

فِيهِ تَارَةٌ أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ
فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَيْنًا يَدُ
يَبْعًا ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا
﴿٦٧﴾ [الإسراء: ٦٦-٧٠].

قال ابن عباس رضي الله عنه: من كان في
هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن
الآخرة التي لم يعاين أعمى وأضل سبيلاً.

قال الحسن: من كان في هذه الدنيا أعمى
عن حجج الله البالغة بعثه الله يوم القيامة
أعمى، كما قال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٣٩﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى
وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٤٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا
وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٤١﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

وقيل: فهو في الآخرة أعمى: أي: أشد
عمى؛ لأنه من عمى القلب، ولا يقال مثله
في عمى العين (٢).

بقيت فائدة تخص ذكر الصدور وكونها
مكان القلوب قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ومعلوم أن القلب
مكانه الصدر بداهة، فما الفائدة المترتبة
على ذكر ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾؟

والجواب على ذلك يكفينيه جار الله
الزمخشري طيب الله ثراه، فيقول:
«الذي قد تعرف عليه واعتقد أن العمى

وينعي عليهم تقاعدهم عنها» (١).

قال قتادة: البصر الناظر جعل بلغة
ومنفعة، والبصر النافع في القلب.

وقال مجاهد: لكل عين أربع أعين [يعني
لكل إنسان أربع أعين] عينا في رأسه
لدنياه، وعينا في قلبه لآخرته، فإن عميت
عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه
شيئاً، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا
قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً.

نتابع الكلام حول قوله سبحانه وتعالى:
﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

سبق تفسير هذه الآية بما قاله الإمام
القرطبي «من أن من كان في هذه الدنيا
أعمى بقلبه عن الإسلام وإبصار الحق فهو
في الآخرة في النار، وهذا عين الإنصاف؛
لأنه لا ذنب للأعمى فيما حل به.

قال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن
إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال:
اقرأوا ما قبلها: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِيِ يُزْجِي لَكُمْ
الْفُلُوكَ فِي الْبَحْرِ لِيَبْتَلِيَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ
بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ
ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا بَلَغْتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخْصِفَ بِكُمْ
جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا
تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

(١) روح المعاني، الألوسي ١٧/١٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/٢٩٨.

٢. الران.

مما يميم القلب - والعياذ بالله - تغشيه بالران، وللإمام الفخر الرازي تفصيلات تخص معنى الران ذكرها من خلال أهل اللغة وأهل التفسير فيقول: «ولأهل اللغة في تفسير لفظة الرين وجوه، ولأهل التفسير وجوه آخر.

أما أهل اللغة فقال أبو عبيدة: ران على قلوبهم: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرين على الميت فيذهب به.

قال الليث: ران النعاس والخمر في الرأس إذا رسخ فيه، وهو يرين ريناً وريوناً.

قال أبو زيد: يقال: رين بالرجل يران به ريناً إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه.

قال أبو معاذ التحوي: الرين: أن يسود القلب من الذنوب، وهو كالصدأ يغشى القلب، ومثله العينين.

والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين.

والإقفال: أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب.

وأما أهل التفسير فلهم وجوه: منها: أنه هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه، فيموت القلب.

ومنها أن القلب كالكف فإذا أذنب الذنب انقبض، وإذا أذنب ذنباً آخر انقبض وضم

على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب استعارة، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الإبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف؛ ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار، كما يقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت؛ لأن محل المضاء هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبتته للسانك فلتة ولا سهواً مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً^(١).

إذن فذكر الصدر جاء على سبيل التأكيد وزيادة التعيين والتعريف، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقولك: «نظرت بعيني رأسي». نخلص إلى حقيقة الحقائق، وهي أن العمى على سبيل الحقيقة الشرعية هو في القلب، ويكون حسياً في العين، ولكن لا أثر له مع نور القلب، أعاذنا الله من العمى والعمه، ونسأله أن ينور بصائرنا بنوره.

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾

[النور: ٤٠].

(١) انظر: الكشف، الزمخشري ١٧/٣.

وسلم قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله ﴿كَذَّابٌ رَّانٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢)).

إذن فالران ظلمة وسواد تحول بين القلب ومعرفة الحق أو الاعتراف به. نسأل الله العافية.

والران في الاستعمال القرآني جاء في معرض الحديث عن الفجار في قوله تعالى ﴿كَذَّابٌ رَّانٌ كَتَبَ الْفَجَارُ لَفِي سَيِّئِينَ ٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَيِّئِينَ ٨ كَتَبَ مَرُومٌ ٩ وَقَدْ يَوْمِزُ الْمَكِيدِينَ ١٠ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ١١ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٣ كَذَّابٌ رَّانٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين: ٧-١٤].

تحدثت هذه الآيات عن الأشقياء الفجار، وتصور جزاءهم في الآخرة، فيقول الله عز وجل ردعاً وزجراً للمطففين: ﴿كَذَّابٌ رَّانٌ﴾ وهي للردع والزجر لهم عن غفلتهم عن البعث والجزاء، إن كتاب الأشقياء لفي مكان ضيق سحيق ﴿لَفِي سَيِّئِينَ﴾ وهو مأخوذ

أخرى - حتى ضم أصابعه كلها - ثم يطبع عليه، وهو الرين.

والإنسان إذا واطب على الإتيان ببعض أنواع الذنوب حصلت في قلبه ملكة نفسانية على الإتيان بذلك الذنب، ولا معنى للذنب إلا ما يشغلك بغير الله، وكل ما يشغلك بغير الله فهو ظلمة فإذا الذنوب كلها ظلمات وسواد، ولكل واحد من الأعمال السالفة التي أورث مجموعها حصول تلك الملكة أثر في حصولها، فذلك هو المراد من قولهم: كلما أذنب الإنسان حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب، ولما كانت مراتب الملكات في الشدة والضعف مختلفة لا جرم كانت مراتب هذا السواد والظلمة مختلفة، فبعضها يكون ريناً، وبعضها يكون طبعاً، وبعضها إقفالاً.

قال القاضي الباقلاني: ليس المراد من الرين أن قلبهم قد تغير وحصل فيه منع، بل المراد أنهم صاروا لإيقاع الذنب حالاً بعد حال متجربين عليه، وقويت دواعيهم إلى ترك التوبة وترك الإقلاع فاستمروا وصعب الأمر عليهم؛ ولذلك بين أن علة الرين لا تمنع من الإقلاع والتوبة^(١).

ولقد فسرت السنة النبوية المطهرة الران بالسواد الذي يعلو القلب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٩٥-٩٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة ويل للمطففين، ٥/ ٤٣٤، رقم ٣٣٣٤.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٢، رقم ١٦٧٠.

من السجن، وهو الضيق ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وهل تعلم ما هو سجين ؟ استفهام في غاية التهويل والتعظيم. ثم يجب سبحانه وتعالى ﴿كُتِبَ مَرْقُومٌ﴾ ومكتوب لا ينسى ولا يمحي. ﴿وَقُلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هلاك ودمار للمكذبين الذين يكذبون بيوم الجزاء والحساب؛ لأنه لا يكذب به إلا كل متجاوز للحد في الكفر والضلال مبالغ في العصيان والطغيان.

هذا المكذب إذا تتلى عليه آيات القرآن قال: ﴿أَسْطِطُ الْآوَلِينَ﴾ أي: حكايات وأقاصيص وخرافات الأوائل سطورها وحبروها في كتبهم، ثم يأتي الردع لهذا المعتدي الأثيم عن قوله المتجرئ فيه على ربه تكدياً له: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بيان ما أدى بهم إلى التفوه بتلك المقالة الباطلة: أي: ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها مثل تلك المقالة الباطلة، بل ركب قلوبهم وغلب عليها ما استمروا على اكتسابه من الكفر والمعاصي حتى صار كالصدأ في المرأة، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق؛ فلذلك قالوا ما قالوا^(١). نسأل الله معافاته.

٣. الكفر.

من أخطر أسباب موت القلب الكفر. وقد وردت مادة الكفر في القرآن العزيز

مرتبطة بالقلب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَا يَا مَرْكُومٌ يَمُنُّكُمْ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

هذه آية من آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن بني إسرائيل وفضائعهم الفاضحة، فقد أخذ الله عليهم العهد المؤكد - عن طريق رسله وأنبياؤه - على العمل بما في التوراة، وقد تهددهم الله تعالى برفع الطور فوقهم فعلاً، قائلاً: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم وحزم، وإلا طرحنا الجبل فوقكم ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ سماع طاعة وقبول، فكان جوابهم: سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: خالط حب العجل قلوبهم حتى امتزج بدمائهم، ودخل السويداء، كما يدخل الصبغ في الثوب، والماء في العود الأخضر، كل ذلك بسبب ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ قل لهم يا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿يَسْكَا يَا مَرْكُومٌ يَمُنُّكُمْ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما تزعمون^(٢).

يقول الألوسي: «وذكر القلوب لبيان مكان الإشراب، وذكر المحل المتعين يفيد المبالغة في الإثبات.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ٧٩/١.

(١) انظر: روح المعاني الألوسي ٧٢/٣٠.

عنه من باب، وعلى ذلك نبه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

أي: الخارجون من الشرع، وجعل الله المنافقين شرًا من الكافرين. فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] (٣).

وقد وصف النفاق في الاستعمال القرآني بالمرض، والمرض يعرف بأنه: حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل، وقد يطلق المرض لغة على أثره، وهو الألم، وعلى ضعف القلب وفتوره، وعلى كل ما يعرض للمرء مما يخل بكمال نفسه، كالبغضاء، والغفلة، والغل، والحسد، وسوء الاعتقاد والهوى، وغير ذلك من موانع الكمالات المشابهة لاختلال البدن المانع عن الملاذ، والمؤدية إلى الهلاك الروحاني، الذي هو أعظم من الهلاك الجسماني.

والمنقول عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة وسائر السلف الصالح: حمل المرض في الآية على ما يخل بكمال النفس، ولا شك أن قلوب المنافقين كانت مملأة من تلك الخبائث التي منعتهم مما منعهم، وأوصلتهم إلى الدرك الأسفل من النار (٤).

وأشربوا من الشراب، ومن عادة العرب أنهم إذا عبروا عن مخامرة حب أو بغض استعاروا له اسم الشراب، إذ هو أبلغ منساع في البدن؛ ولذا قال الأطباء: الماء مطية الأغذية والأدوية ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن (١).

وقريب منه «السلك» في الآية الأخرى، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذٰلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢].

والسلك: إدخال الشيء في الشيء، كإدخال الخيط في المخيط.

والمعنى: كذلك نسلكه -أي: الضلال والكفر والاستهزاء والشرك- في قلوب المجرمين من قومك، قاله الحسن وقتادة، أو نسلك القرآن في قلوبهم فيكذبون به.

وأعظم أنواع الكفر: جحود الوجدانية، أو النبوة، أو الشريعة، وهو ما ينطبق على الآية التي نحن بصدددها، وعلى كل فالكفر من أخطر أمراض القلوب، فليس بعد الكفر ذنب، أعادنا الله والمؤمنين منه (٢).

٤. النفاق.

من الأمراض التي تقضي على القلب فتؤدي به إلى الموت: النفاق، والنفاق يطلق على الدخول في الشرع من باب والخروج

(١) روح المعاني، الألوسي ٣٢٦/١.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧١٤.

(٣) المصدر السابق ص ٨١٩.

(٤) روح المعاني، الألوسي ١٤٩/١.

فالمرض: إما آفة في الإدراك، كسوء الاعتقاد والكفر، وإما الهيئة الباعثة على ارتكاب الرذائل، كالغل والحسد والبغض، أو المانعة عن اكتساب الفضائل، كالضعف والجبن والخور.

وكل ذلك كائن موجود في المنافقين، حيث تأصل فيهم سوء الاعتقاد الذي أدى إلى ارتكاب الرذائل، الذي يؤدي بدوره إلى المنع من اكتساب الفضائل، ففساد اعتقادهم أدى بهم إلى الحقد والغل والحسد لدرجة أن صدورهم كانت تغلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين غلاً وحقاً، فهم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْءُهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

﴿قَدْ بَدَتْ أَلْبَعُضَةُ مِنْ أَقْوَاهِمَ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ومن أفدح أنواع الأمراض وأخطرها مرض النفاق، وقد جاء في الاستعمال القرآني مقترنا بالقلب في آيات منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ⑧ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلَآئِنِ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ⑨ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ⑩ [البقرة: ٨-١٠].

هذه الآيات من سورة البقرة جاءت عقب

ذكر صنفين من الناس.

يقول القاضي البيضاوي: «لما افتتح الله تعالى بشرح حال الكتاب، وساق بيانه، ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم أَلْسِنَتُهُمْ، وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً، وثلاث بالمذبذبين بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للتقسيم، وهم أخبت الكفرة، وأبغضهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاء؛ ولذلك طول في بيان خبثهم وجهلهم واستهزأ بهم، وتهكم بأفعالهم، وسجل عليهم عمهم وطغيانهم، وضرب لهم الأمثال، وأنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]» ①.

فوائد مهمة متعلقة بالنفاق:

الفائدة الأولى: المرض جاء منونا في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. فما الحكمة من ذلك ؟ قلت: قال المحقق الألوسي: «جاءت كلمة ﴿مَّرَضٌ﴾ بالتثنية: للدلالة على أنه نوع غير ما يتعارفه الناس من الأمراض» ② وقد زاد الله مرضى القلوب بأفة النفاق مرضاً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ فما سبب هذه الزيادة

① أنوار التنزيل ١/ ٤٦١.

② روح المعاني ١/ ١٤٩.

الفائدة الثالثة: كثيراً ما يفسر النفاق بالشك في حين أن آية النور يقول منطوقها: ﴿إِنِّي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَرِيقَابُوا﴾ [النور: ٥٠] ومعروف أن المرض مرض النفاق، فكيف نوفق بين حمل القرآن للمرض على أنه النفاق ﴿إِنِّي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: نفاق، وبين تفسير النفاق بالشك مع وجود هذه الآية الكريمة؟

يقول الألوسي: «هذا ترديد لسبب الإعراض المذكور، فمدار الاستفهام ما يفهم من الكلام كأنه قيل: أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم أنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم، أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا في أمر نبوته صلى الله عليه وسلم مع ظهور حقيقتها، أم سببه أنهم يخافون أن يحيف ويجور الله تعالى شأنه عليهم ورسوله صلى الله عليه وسلم والاستفهام إنكاري»^(٣).

ويقول الرازي: ﴿إِنِّي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إشارة إلى النفاق ﴿أَرِيقَابُوا﴾ إشارة إلى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الإسلام في القلب^(٤).

ففسر المرض بمرض يقوم بأعيانهم، أو المرض: الكفر، والريب: النفاق، أو المرض: الكفر، والريب شيء حدث بعد تقرير الإسلام في القلب.

قلت: الجواب: أنه كلما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم، أو كلما نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ازدادوا حسداً وغلاً وبغضاً، وازدادت قلوبهم ضعفاً وخوراً، وهذا زيادة في المرض^(١).

الفائدة الثانية: معلوم أن مرض النفاق مجمع على ظهوره بالمدينة، فكيف تناوله القرآن المكي؟

قال سبحانه وتعالى في سورة المدثر المكية: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يُغْنِي عَنْكَ الْإِهْوَاءُ﴾ [المدثر: ٣١].

والجواب: أن الله تعالى أخبر في هذه الآية المكية عما سيقع من المنافقين، وعلى هذا نعتبر هذه الآية معجزة؛ لأنه إخبار عن غيب سيقع، وقد وقع على وفق الخبر، فيكون معجزاً، ويجوز أن يراد بالمرض: الشك؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين، وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب^(٢). ويمكن أن يكون المراد بالمرض ما هو مترتب على عداوة الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم من كراهية وغل وحقد وحسد وضغينة وحب، لأن يغلب فكل هذه أمراض لا مانع من وجودها في القلب مع الكفر.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٨/ ١٩٦.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٢١.

(١) الكشف، الزمخشري ١/ ١٧٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٢٠٧.

في واحد منهم واحد بالشخص كثير
بالاعتبار^(١).

خلاصة القول: أن المرض من أعظم
آفات القلوب فتكاً بمن تمكن منه، وأكثر ما
يفسر بالنفاق والشك والشهوة، وغير ذلك،
ولكنه غلب على النفاق نساءل الله معافاته.

الفائدة الرابعة: ما معنى ذكر النفاق
والمرض في موضع واحد؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا
عُرْوًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي
الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا
إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠].

وظاهر العطف أن الذين في قلوبهم
مرض قوم لم يكونوا منافقين، فقليل: هم قوم
كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة
عليهم، وقيل: قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد
لقرب عهدهم بالإسلام.

وجوز أن يكون المراد بهم المنافقين
أنفسهم، والعطف لتغاير الوصف كقولهم:
«إلى الملك القرم وابن الهمام» سواء جعل
العطف تفسيرياً، أو فسر مرض القلوب
بالإحن والعداوات والشك مما هو غير
النفاق، وعلى هذا فهم فريق واحد إلا أن
لهم اعتبارات متعددة: المرض، الإرجاف،
الارتياب، التردد.

وهذا نظير قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ
الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(١) انظر: الكشف الزمخشري ١٧٦/١، روح
المعاني الألويسي ١٥٨/٢١.

حيث ذكر أصنافاً عشرة كلهم يوجد

سنة الله في أصحاب القلوب

أولاً: سنة الله في أصحاب القلوب السليمة:

تناولنا فيما سبق صفات القلوب في الاستعمال القرآني من حيث السلامة والمرض والموت، ومما لا شك فيه أن القلوب ليست هي الغايات بل أصحابها بنص القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فالذي يحمل قلبا مخلصا لا شرك فيه ولا شبهة يتنفع به في الآخرة.

من هنا يجدر بنا أن نبين سنة الله وعادته في أصحاب القلوب على اختلاف أوصافها ليعيش المسلم بين الخوف والرجاء، الخوف من هلاك القلب وخسران صاحبه، والرجاء في مزيد من الطاعة ليفوز فوزاً عظيماً.

وبناء على ما تقدم نستطيع استجلاء سنة الله وعادته مع أصحاب القلوب السليمة، وكونه سبحانه وتعالى يرزقهم من عطايه الجزيل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيهم:

- ✽ الطمأنينة وسكون النفس وراحة البال.
- ✽ ويرزقهم الله عز وجل الخوف منه، فلا يقدمون على معصيته، ولا يجترئون

على منكر.

- ✽ ويغرس فيهم الرأفة والرحمة والشفقة.
- ✽ ويمنحهم الله الطهر والنقاء وصفاء السريرة.

- ✽ كما يرزقهم الله الإخبات والخشوع والتذلل لجنان الحق - جل وعلا - ويغرس في قلوبهم الإيمان غرساً.
- ✽ كما يحبوهم الله ألفة، وما أدراك ما الألفة؟ إنه سمت المسلم وسمته.

- ✽ كما يعطيهم الله التقوى والإنابة وكثرة الرجوع إليه سبحانه.

- ✽ كذلك الهدى والرشاد، وكفى بهما ظفراً لصاحبهما.

- ✽ كذلك يرزقهم الله القوة في الصدع بالحق، فلا يخافون من مخلوق البتة.

- ✽ كذلك يرزقهم الله ليونة وطواعية تجعل صاحب القلب السليم حياً يتأثر بالموافق وينفعل بها.

- ✽ كذلك الفقه، ونعمة الفهم، وأجزل بهما من عطاء لصاحب القلب السليم المستقيم.

هذه نعم حياتية نستطيع استشفافها من خلال آيات القرآن الكريم التي تقدم ذكرها في صفات القلوب السليمة من هذا البحث.

أما في الآخرة: فكفى صاحب القلب السليم شرفاً وفضلاً أن الله أعد له الجنة، وأعد له فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر، ومن كان جزاؤه الجنة فقد رضي الله عنه، وفاز فوزاً عظيماً، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ دُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَمٌ مِّنَ الْغُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ولما كان مآل أصحاب القلوب السليمة مفسراً واضحاً فلا يحتاج إلى مزيد بيان وترغيب، اكتفيت بما ذكرته سابقاً مفصلاً، ولاحقاً مجملاً؛ لأسير على سنن القرآن وهديه، حيث إن الله عز وجل لم يفصل الحلال المباح ولكن فصل ما حرم علينا فحسب؛ لتتوقاه، وفي توقيه خروج من ضيق الحرام والمعصية إلى سعة الحلال الطيب.

ثانياً: سنة الله في أصحاب القلوب المريضة:

اقتضت حكمة الله تعالى ألا يعاجل من عصاه بالنقمة، بل يمهله لعله يتوب ويتدارك أمره.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسْعَوْا لِرَبِّكُمْ أَنْ تُبْرَدُوا بِأَسْوَءِ الْعَوَرِ الْمُجْرِيمِ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وفي الصحيحين: (إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته). ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمَةٌ لِّأَخْذِهِ وَالْأَلَمُ شَدِيدٌ

﴿١٠٢﴾ [هود: ١٠٢] الآية (١).

وقال الله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَلِيَ الْمَصِيْرُ﴾ [الحج: ٤٨] فمن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيْمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ومن أمن العقاب أساء الأدب وكان جزاؤه ما يستحقه.

ومرضى القلوب إن لم يتداركوا مرضهم فإن سنة الله تعالى فيهم أن يزيد علتهم عللاً، وأمراضهم مرضاً، ويطمس على بصيرتهم بتسليط الرجس، والصرف على قلوبهم مما يفضي إلى هلاكها.

١. الرجس.

وهو عقاب يصيب به الله تعالى أصحاب القلوب المريضة ليزيدهم به مرضاً على مرضهم، وقد اقترن بالقلب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [١١٢] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة)، رقم ٤٣١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٣.

وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٤ -

١٢٥].

في حق المنافقين نزلت هذه الآية وما بعدها، والمعنى: فإذا أنزلت سورة من سور القرآن فمن هؤلاء المنافقين من يقول استهزاءً: أيكم زادته هذه إيماناً، فأما الذين آمنوا فزادتهم تصديقاً على ما فيهم من تصديق، وذلك بزيادة الأدلة والبراهين، وأما الذين في قلوبهم مرض النفاق والشك فزادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم، وماتوا على ذلك.

والقدر هنا في الاعتقاد الفاسد؛ لذا فسر الرجس في الآية بالعقائد الفاسدة الباطلة، أو الأخلاق المذمومة.

فإذا كان الأول كان المعنى: أنهم كانوا مكذبين بالسور النازلة قبل ذلك، والآن صاروا مكذبين بهذه السورة الجديدة، فقد انضم مرض عقدي إلى مرض عقدي.

وإن كان الثاني كان المراد أنهم كانوا في الحسد والعداوة واستبطان وجوه المكر والكيد، والآن ازدادت تلك الأخلاق الذميمة بسبب نزول هذه السورة الجديدة^(١).

وكفى بالقدر نهاية للقلوب المريضة والعياذ بالله.

٢. الصرف.

الصرف مرض يصيب القلب ليزداد

ضلالاً.

وقد اقترن الصرف بالقلوب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

والآية تخبر أن المنافقين كانوا إذا أنزلت سورة تفضح النفاق والمنافقين، وهم في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينظر بعضهم إلى بعض مستقرئين حال الجالسين، متحينين الفرصة للهرب والانصراف، فهم لا يطيقون سماع مذمتهم وفضيحتهم، فإذا وجدوا الأمر على ما يريدون انصرفوا وقاموا ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وهذه جملة دعائية، أي: صرفها عن الهدى والإيمان ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الحق ولا يتدبرون.

فالصرف هنا: دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح بسبب أنهم قوم لا يفقهون^(٢). وهو خذلان وإضلال للمنافقين ومن على شاكلتهم من أصحاب القلوب المريضة.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/٢٣٧.

(٢) الكشف، الزمخشري ٢/٢٢٣.

ثالثاً: سنة الله في أصحاب القلوب الميته:

سنة الله في أصحاب القلوب الميته أنه سبحانه وتعالى يذيقها من صفات العذاب ما يزيد لها عزلة واحتجاباً، حتى أصحابها فمن الإرعاب إلى الطبع إلى الختم إلى القفل والكنان.

١. الرعب.

الرعب: أصله التقطيع، من قولهم: رعبت السنام ترعيّاً إذا قطعتة مستطيلاً، كأن الخوف يقطع الفؤاد، أو يقطع السرور بضده، ورعب السيل الوادي إذا ملأه، كأن السيل قطع السلوك فيه، أو لأنه انقطع إليه من كل الجهات (١).

وقد ورد الإرعاب مقترناً بالقلب كعقوبة لأصحاب القلوب الميته في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۖ﴾ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) [الأنفال: ١٢-١٣].

والمعنى: اذكر يا محمد وقت إحياء الله للملائكة بقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٣٢/٤.

والنصر ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ثبتوا المؤمنين وقوؤهم، ساقذف في قلوب الكافرين الخوف والفرع حتى ينهزموا، فاضربوهم على الأعناق واضربوا منهم كل بنان، وهذا في غزوة بدر الكبرى. والمعنى عليه: سنملاً قلوب المشركين خوفاً ورعباً، هذا الخوف والرعب يكاد يقطعهم عن الحياة لقسوته.

يقول الفخر الرازي مبيّناً وجه الربط بين سابق هذه الآية واللاحق: «وهذا من النعم الجليلة؛ وذلك لأن أمير النفس هو القلب، فلما بين الله سبحانه وتعالى أنه ربط قلوب المؤمنين بمعنى أنه قواها وأزال الخوف عنها، ذكر أنه ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين، فكان ذلك من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين (٢).

ومن فضل الله سبحانه وتعالى علينا جعله سبحانه الرعب في قلب كل من لا يسلم وجهه لله.

يقول الفخر: «وظاهر قوله: ﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

يقتضي وقوع الرعب في جميع الكفار، فذهب العلماء إلى إجراء هذا العموم على ظاهره؛ لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه ضرب من الرعب من المسلمين،

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣٩/١٥.

الْأَبْصَرِ ﴿٢﴾ [الحشر: ٢].

وقد كان هذا الإرعاب لليهود بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، وكان مقتله في ربيع الأول من السنة الثالثة، وكانت غزوة بني النضير في ربيع الأول من السنة الرابعة، وسبب قتله أنه لما رأى ما وقع في غزوة بدر من عز الإسلام والمسلمين ازداد اللعين غيظاً وحسداً، وكان شاعراً فصار يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين بشعره، وذهب إلى مكة محرّضاً قريشاً على حرب المسلمين وحزبهم، فجاؤوا في وقعة أحد، فلما ظهر أمره للنبي صلى الله عليه وسلم أرسل له محمد بن مسلمة ومعه أربعة، وكلهم من الأوس، فقتلوه في حصنه غيلة وخديعة، فألقى الله الرعب في قلوب بني النضير، وخافوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً شديداً، فغزاهم صلى الله عليه وسلم وأمكنه الله منهم.

وكان الإشرار سبباً لإلقاء الرعب وقذفه في قلوبهم، أليس الشرك من موجبات الخذلان، كما أن الإيمان من موجبات التوفيق والنصر؟! (٢).

والخلاصة أن الرعب يقذفه الله تعالى غالباً في قلوب أصحاب القلوب الميتة جزاءً وفاقاً.

إما في الحرب وإما عند المحاجة» (١).

ومن الملاحظ أن الإلقاء في آية آل عمران ﴿سَنُلْقِي﴾ وآية الأنفال ﴿سَأُلْقِي﴾ مفسر بالقذف في سورة الأحزاب، قال تعالى في معرض حديثه سبحانه عن غزوة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٦].

وأصل القذف: الرمي بقوة، أو من بعد، وعليه يكون المعنى: وأنزل الله الرعب في قلوب بني قريظة إنزالاً شديداً كأنه قد قذف الحجارة فيها، وهذا ما حدث فعلاً عندما قذف الله الرعب في قلوب اليهود حتى أسلموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وأولادهم للأسر حسبما نطق القرآن العزيز: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وما في سورة الأحزاب هو ما ازداد وضوحاً وبياناً في سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرَوْنَ يَدِيَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاتَعَبُوا بِمَا قَالُوا

(٢) انظر: روح المعاني، الألويسي ٤١/٢٨.

(١) المصدر السابق ٣٣/٩.

٢. الحسرة.

من سنن الله في أصحاب القلوب الميته أن يجعل الحسرة والندامة صفة لهم تلازمهم، وذلك حين لا ينفع التحسر أو الندم، والحسرة: الغم على ما فاتته، والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، أو انحسر قواه من فرط غم، أو أدركه إعياء من تدارك ما فرط منه (١).

وقد وردت الحسرة مقترنة بالقلب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

معنى الآية: لما كان من طبيعة المنافقين تعبير المؤمنين على جهادهم مع الكفار بقولهم: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ ثم إنه لما ظهر عند بعض المؤمنين فتور وفشل في الجهاد حتى وقع يوم أحد ما وقع، وعفا الله - بفضله - عنهم، ذكر في هذه الآية ما يدل على النهي عن أن يقول أحد من المؤمنين مثل مقاتلهم، فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لمن يريد الخروج إلى الجهاد: لو لم تخرجوا لما متم، وما قتلتم، فإن الله هو المحي والمميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٥.

في الجهاد، ومن قدر له الموت لم يبق، وإن لم يجاهد، وهو المراد من قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وأيضا الذي قتل في الجهاد حتى يستوجب الثواب العظيم كان ذلك خيرا له من أن يموت من غير فائدة.

وهو المراد من قوله: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧] (٢).

وذكر القلوب مع أن الحسرة لا تكون إلا فيها لإرادة التمكن والإيذان بعدم الزوال (٣). أو الاهتمام على فائت لم يقدر بلوغه قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

وإسناد الفعل إلى الله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ له نكتة، وهي كما يقول جار الله الزمخشري رحمه الله: «فإن قلت: ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟ قلت: معناه: أن الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم ويضيق صدورهم عقوبة، فاعتقادهم فعلتهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق الصدور فعل الله عز وجل كقوله: ﴿لِيَجْعَلَ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٩.

(٣) روح المعاني، الألويسي ٤/ ١٠١.

لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك، ربنا أهلك أموالهم وأزلها وبددها.

والطمس: إزالة أثر الشيء بالمحو.

﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اطبع عليها وقسها حتى لا تنشرح للإيمان فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وهذا دعاء عليهم بلفظ النفي، أي: اللهم فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم، ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم ولعلمه بالوحي أنهم لن يؤمنوا.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أَجِيبَ دَعْوَتُكُمَا﴾ على فرعون وأشراف قومه فكان الغرق لفرعون وقومه، وثبت الله موسى وأخاه هارون (٣).

قال الجمل: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: أي: اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان (٤).

وقال ابن عباس: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ امنعهم الإيمان.

وقيل: اطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان (٥).

وكل هذه المعاني مختلفة اختلاف تنوع لا اختلاف تعارض بينها.

ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دل عليه النهي، أي: «لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم؛ لأن مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضاداتهم مما يغمهم ويغيظهم» (١).

فالحسرة والندامة عقوبة لازمة لمن مات قلبه.

٣. الشد.

الشد على القلب عقاب لمن مرض قلبه حتى أجهز عليه فمات.

ومعنى الشد على القلوب: الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان (٢).

وقد جاء الشد مقرونًا بالقلب في الاستعمال القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) [يونس: ٨٨-٨٩].

والمعنى: قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه زينة من متاع الدنيا وأنواعًا كثيرة من المال.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾: اللام: للعاقبة، أي: آتيتهم تلك الأموال الكثيرة

(٣) صفة التفسير، الصابوني ١/ ٥٩٥.

(٤) الفتوحات ٣/ ٤٠٤-٤٠٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٧٤.

(١) الكشف، الزمخشري ١/ ٤٧٤.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٥٠.

٤. الطبع.

من سنة الله في أصحاب القلوب الميتة أنه سبحانه يطبع عليها.

والطبع: يطلق على تأثير الشيء بنقش الطابع، وعلى الأثر الحاصل عن النقش، يقول الراغب: الطبع: أن تصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة وطبع الدراهم، وهو أعم من الختم وأخص من النقش، والأكثر على تفسيره بالختم مرادًا به المنع.

وجاء الطبع بمعنى: الدنس، ومنه طبع السيف لصدئه ودنسه^(١).

وقد سوى بعض العلماء بين الطبع والختم والرين كما يقول الفخر: «الطبع، والختم، والرين، والكنان، والغشاوة، والصد، والمنع، واحد»^(٢).

قلت: لعله أراد التوحد من حيث انتظام هذه الأوصاف تحت شيء واحد، ألا وهو العقاب لأصحاب القلوب الميتة، أما من حيث دلالات الألفاظ وما تحمله، فمن المقطوع به أن كل لفظ له دلالة وظلاله التي اختص بها.

وقد ترتب على الطبع عدة آفات، منها:

❖ عدم السمع: قال سبحانه وتعالى:

﴿وَنُطِيعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

❖ عدم الفقه: قال سبحانه وتعالى:

﴿وَنُطِيعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

❖ عدم العلم: قال سبحانه وتعالى:

﴿وَنُطِيعُ اللَّهَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[التوبة: ٩٣].

وبالتأمل وجدنا أن عدم السمع وعدم الفقه، وعدم العلم يعني: اتباع الهوى والغفلة التامة، والاعتداء على حدود الله، وذلك كله مردود إلى الطبع.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ

الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

[محمد: ١٦].

وقال سبحانه وتعالى في الغافلين:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

وَسَمِعِهِمْ وَأَنصَرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُفْلِسُونَ﴾ [النحل: ١٠٨].

وقال سبحانه وتعالى في المعتدين:

﴿كَذَٰلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾

[يونس: ٧٤].

وكل ذلك كائن عند الكافرين الذين

استجمعوا كل صفات المهانة والقبح، فقال

عز من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطِيعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ

الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقد ورد الطبع في الاستعمال القرآني

في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠١.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥٧/٢.

النذر والآيات.

أعاذنا الله بفضلله وكرمه من الطبع ومن كل ما يقرب إليه من قول أو عمل.

[انظر: الطبع على القلوب: أسباب الطبع - نتائج الطبع على القلوب]

٥. الختم.

من سنة الله تعالى في أصحاب القلوب الميثة «الختم عليها».

تناول المفسر القرطبي الختم تناولاً لغوياً فقال: «مصدر ختمت الشيء ختماً فهو مختوم، ومختم» شدد للمبالغة «ومعناه: التغطية على الشيء بطابع ونحوه للاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه: ختم الكتاب والباب، وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه، والختم يكون محسوساً، ويكون معنوياً.

وكما يكون الختم على القلوب الذي يعني: عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته، يكون على السمع: فيفسر بعدم السماع للحق، ويكون على الأبصار: ويفسر بعدم هدايتها للنظر في مخلوقات الله وعجائب مصنوعاته^(١).

وسبب الختم استمرار المعاصي والولوغ فيها واستحسانها.

يقول الراغب: أجرى الله العادة أن الإنسان إذا تنهى في اعتقاد باطل وارتكاب

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٨٦.

يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُوثَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ [الأعراف: ١٠٠-١٠١].

يخاطب الله سبحانه وتعالى كفار مكة وكل من يصلح له هذا الخطاب محذراً بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي: أولم يتضح ويتبين للذين يخلفون الأرض من بعد هلاك أهلها الذين عمروها قبلهم أن لو أردنا إهلاكهم لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من كان قبلهم، ونطبع: أي نختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يقبلون موعظة ولا تذكيراً لتعطلها.

تلك القرى نقص عليك يا محمد صلى الله عليه وسلم من أخبارها وما حصل لأهلها من صنوف النكال والعذاب ليعتبر بذلك من يسمع، ولقد جاءتهم رسلهم بالهجة بينات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل؛ لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات، وبعد مجيئهم بها، فحالهم واحد في العتو والضلال.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين، فلا تكاد تؤثر فيهم

محذور فلا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي، وكأنما يختم بذلك على قلبه، وعلى ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨].

إطلاقات الختم:

يطلق الختم على: المنع، والطبع، والحفظ، وبلوغ الآخر.

٤. المنع: وذلك بالاستيثاق من الشيء والمنع منه اعتبارًا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥]. أي: نمنع أفواههم من الكلام.

٥. الطبع: الحفظ: كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّطْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]. أي: يربط على قلبك ويحفظه وهذا المعنى ليس مرادًا هنا.

٦. بلوغ الآخر: ومنه ختمت القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿خَتَمْتُ مِسْكَ﴾ [المطففين: ٢٦]. أي: آخره^(١).

وقد فسر الختم في آية الأنعام، في قوله تعالى: ﴿قُلْ آرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦].

بالطبع، فقال: طبع على قلوبهم فلم يعقلوا الهدى، أو أزال عقولكم حتى تصيروا كالمجانين، أو المراد بالختم الإمامة، أي: يमित قلوبكم، وكله في معنى الطبع^(٢).

وقد وردت صفة الختم في آيات متعددة من القرآن الكريم مقترنة بالقلب، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٦] خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ [البقرة: ٦-٧].

والمعنى: إن الذين جحدوا بآيات الله سبحانه وكذبوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم يتساوى عندهم تحذيرك يا محمد إياهم من عذاب الله وتخويفك وعدم تحذيرك، فهم لا يصدقون بما جئتهم به، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وقد جاء هذا على سبيل التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له.

ولما حكم سبحانه وتعالى عليهم بأنهم لا يؤمنون ذكر عقبيه ما يجري مجرى العلة الموجبة له، فقال سبحانه وتعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: طبع على قلوبهم فلا يدخلها نور ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾ وغطاء فلا يبصرون الهدى ولا يسمعون ولا يفقهون؛ لذلك يرون الحق فلا

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٣٩.

(١) انظر: الوجوه والنظائر ١/ ٣٢٠.

يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه، ولهم عذاب شديد لا ينقطع في الآخرة.

وقد شنع الإمام القرطبي على الفرق الضالة التي حادت عن الحق منتصرة لأهل السنة والجماعة فيقول: «في هذه الآية أول دليل على أن الله سبحانه وتعالى خالق الهدى والضلال والكفر والإيمان، فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم، فإن الختم هو الطبع، فمن أين لهم بالإيمان ولو جهدوا؟! وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة. فمتى يهتدون؟! أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم؟! ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

وكان فعل الله ذلك عدلاً فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعه حقاً وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يفضل به عليهم لا ما وجب لهم؛ ولأن الأمة مجمعة على أن الله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] (١).

وبناءً على ما تقدم نستطيع الجزم بأن الختم كما هو للحفظ والمنع يكون للطبع؛

عقوبة لصاحبه الذي أهمل قلبه حتى مات ثم استمر ذلك. أعاذنا الله من الختم وما يقرب إليه من قول وعمل. آمين. ٦. الكنان.

من سنن الله سبحانه وتعالى في أصحاب القلوب الميتة أنه يضع الأغشية والأغلفة على هذه القلوب فلا تعي شيئاً من الخير البتة. و الأكنة: الأغشية، جمع كنان، مثل: الأسنان والسنان، يقال كنتت الشيء في كنه إذا صنته فيه، وأكنتت الشيء أخفيته، والكنانة: معروفة جعبة السهام، والكنان للقلب كالجنة للنبل (٢).

وقد ورد الكنان مقترناً بالقلب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَرْتُمْ فِي آلْقُرْآنِ وَحَدُّهُمْ وَلَوْ أَنَّ عَلَى آذَانِهِمْ تُقْرَأُ﴾ [الإسراء: ٤٦].

المعنى: وجعلنا على قلوب الكافرين أغشية وأغلفة؛ لئلا يفهموا القرآن مجازاة لهم على كفرهم، وجعلنا في آذانهم صمماً، وإذا وحدت الله وأنت تتلو القرآن فر المشركون من ذلك هرباً من استماع التوحيد.

فكان الكنان الذي كان على قلوبهم هو

في الحقيقة كنان العناد والمكابرة مع تهيو

نفوسهم للإسلام، وإلا لو غطى الله عليها

(٢) انظر: المصدر السابق ١٥/٣٣٩، ٦/٤٠٤.

(١) المصدر السابق ١/١٨٦.

بغطاء الطبع أو الختم فقد لا يؤمنون البتة ويموتون على الكفر كما حدث لغير من آمن في الوارد ذكرهم في هذا السبب.

وأمرهم هنا - كما قال بعض المحققين - تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جيء بها بياناً لعدم فقههم فصيح المقال^(١).

والأكنة التي هي الأغطية هي الأغلفة التي ورد لها ذكر في موضعين من القرآن، منهما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ **بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ** [البقرة: ٨٨].

والغلف: جمع أغلف، وهو الشيء المستور المغشى، قالها اليهود وقصدوا أننا جبلت قلوبنا على ذلك فلا يتوصل إليها بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فقلوبنا لا نفقهه، مستعار من الأغلف، وهو الذي لم يختن^(٢).

قال مجاهد: غلفٌ: عليها غشاوة. وقال عكرمة: عليها طابع^(٣).

وقد يكون قول اليهود تعالياً على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليظهروا أنهم ليسوا في حاجة إلى علمه صلى الله عليه وسلم،

ويؤيد هذا المعنى قراءة ﴿غُلْفٌ﴾ بضم اللام^(٤).

قال ابن عباس رضي الله عنه: أي: قلوبنا ممثلة علماً لا تحتاج إلى علم محمد صلى الله عليه وسلم ولا غيره^(٥).

وهذه الكلمة ﴿غُلْفٌ﴾ كقول المشركين: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥].

قصد بنو إسرائيل إقنات النبي صلى الله عليه وسلم عن الإجابة، وقطع طمعه عنهم بالكلية.

﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ لما قالوه، وتكذيب لهم فيما زعموه.

والمعنى: أنها خلقت على فطرة التمكن من النظر الصحيح الموصل إلى الحق، لكن الله سبحانه وتعالى أبعدهم وأبطل استعدادهم الخلقي للنظر الصحيح بسبب اعتقاداتهم الفاسدة وجهالاتهم الباطلة الراسخة في قلوبهم^(٦)، فالأكنة والأغلفة جعلها الله عز وجل لمن مات قلبه، كما رأينا في المشركين واليهود.

٧. القفل.

جعل الله القفل والييس والصلابة عقوبة

(٤) قراءة اللؤلؤي عن أبي عمرو.

انظر: شواذ القرآن ص ١٥.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٥/٢.

(٦) روح المعاني، الألوسي ٣١٨/١.

(١) روح المعاني، الألوسي ٨٧/١٥.

(٢) انظر: الكشف، الزمخشري ٢٩٥/١.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٥/٢.

وإضافة الأقفال إليها ﴿أَقْفَالُهَا﴾ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانية لسائر الأقفال المعهودة، وهي أقفال الكفر والعناد^(٢).

موضوعات ذات صلة:

التدبر، التفكير، الحياة، الذكر، الطبع على العقل، القلوب، الموت، الوحي

لأصحاب القلوب الميتة بالكفر وأصل القفل: اليبس والصلابة، يقال لما يبس من الشجر: القفل، وأقفله الصوم: أي: أيبسه.

وفي الاستعمال القرآني ورد القفل مقترنا بالقلب في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

المعنى: أفلا يتفهمون القرآن فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام أم على قلوب أقفالها، أي: بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون. فالأقفال هنا: إشارة إلى ارتجاج القلب وخلوه عن الإيمان، أي: لا يدخل قلوبهم ولا يخرج منها الكفر؛ لأن الله طبع على قلوبهم.

وقال: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ بالتنكير؛ لتهويل حالها وتفظيع شأنها وأمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب منكورة لا يعرف حالها، ولا يقادر قدرها في القساوة.

ولأنه لو قال: «على قلوبهم» لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة. والمراد: أم على قلوب هؤلاء، وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها^(١).

(٢) انظر: الكشف، الزمخشري ٥٣٦/٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٦٦/٢٨.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٤٦/١٦-٢٤٧.